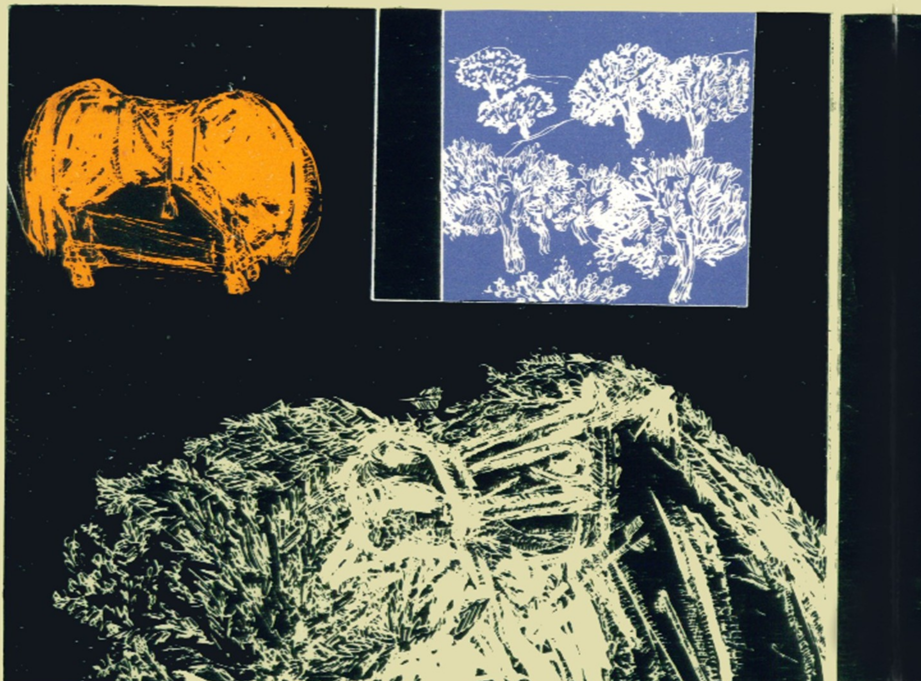
غسان كنفاني

القميص المسروق و قصص اخرى





سلسلة أعمال غسان كنفاني ١٣

غسان كنفاني

القميص المسروق
و قصص اخرى

سلسلة أعمال
غسان كنفاني ١٣

مؤسسة الأبحاث العربية ش.م.م.
مؤسسة غسان كنفاني الثقافية

* القميص المسروق وقصص أخرى، قصص قصيرة لغسان كنفاني.

* الطبعة الثانية ١٩٨٧، (الطبعة الأولى ١٩٨٢).

* الناشر: مؤسسة الأبحاث العربية ش. م. م.

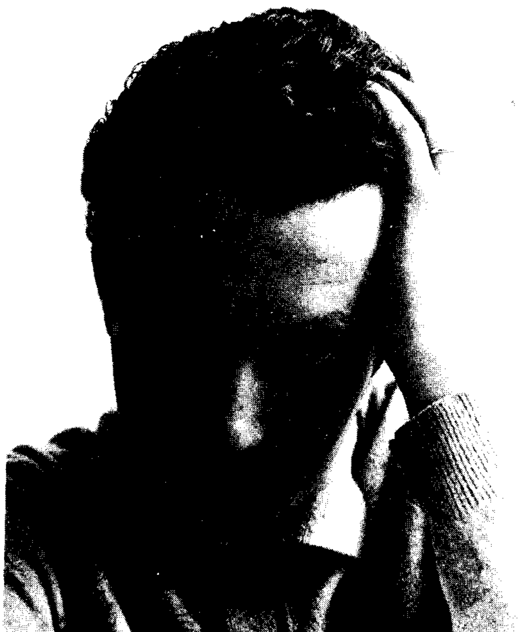
- ص. ب. ٥٠٥٧ - ١٣ (شوران)، بيروت - لبنان.
هاتف ٦/ ٨١٠٠٥٥، تلكس ٢٠٦٣٩ دلتا - لبنان.

— IAR (RAWFID) Ltd.

P.O. Box 7047, Nicosia, Cyprus

Tel. (357)2 - 452670, Tlx. 5223 Rawafid - Cy.

* التنفيذ الفني: دار المثلث ش. م. م، بيروت - لبنان.



غسّان كنفاني

* ولد غسان كنفاني في عكا عام ١٩٣٦، وعاش في يافا واضطر الى النزوح عنها كما نزح آلاف الفلسطينيين بعد نكبة ١٩٤٨ تحت ضغط القمع الصهيوني، حيث اقام مع ذويه لفترة قصيرة في جنوبي لبنان، ثم انتقلت العائلة الى دمشق.

* عمل كنفاني منذ شبابه المبكر في النضال الوطني، وبدأ حياته العملية معلما للتربية الفنية في مدارس وكالة غوث اللاجئين الفلسطينيين (الاونروا) في دمشق، ثم انتقل الى الكويت عام ١٩٥٦ حيث عمل مدرسا للرسم والرياضة في مدارسها الرسمية. وكان في هذه الاثناء يعمل في الصحافة، كما بدأ انتاجه الادبي في الفترة نفسها.

* انتقل الى بيروت عام ١٩٦٠، حيث عمل محررا ادبيا لجريدة «الحرية» الاسبوعية، ثم اصبح عام ١٩٦٣ رئيسا لتحرير جريدة «المحرر»، كما عمل في «الانوار» و«الحوادث» حتى عام ١٩٦٩ حين اسس صحيفة «الهدف» الاسبوعية وبقي رئيساً لتحريرها حتى استشهاده في ٨ تموز (يوليو) ١٩٧٢.

* يمثل كنفاني نموذجا خاصا للكاتب السياسي والروائي والقاص والناقد، فكان مبدعا في كتاباته كما كان مبدعا في حياته ونضاله واستشهاده. وقد نال عام ١٩٦٦ جائزة «اصدقاء الكتاب في لبنان» لافضل رواية عن روايته «ما تبقى لكم»، كما نال جائزة منظمة

الصحافيين العالمية (I.O.J.) عام ١٩٧٤، ونال جائزة «اللوتس» التي يمنحها اتحاد كتاب آسيا وافريقيا عام ١٩٧٥.

مؤلفاته:

* موت سرير رقم ١٢ (قصص) ١٩٦١، * ارض البرتقال الحزين (قصص) ١٩٦٢، * رجال في الشمس (رواية) ١٩٦٣، * الباب (مسرحية) ١٩٦٤، * عالم ليس لنا (قصص) ١٩٦٥، * ادب المقاومة في فلسطين المحتلة (دراسة) ١٩٦٦، * ما تبقى لكم (رواية) ١٩٦٦؛ * القبعة والنبي (مسرحية) ١٩٦٧، * في الادب الصهيوني (دراسة) ١٩٦٧، * عن الرجال والبنادق (قصص) ١٩٦٨، * الادب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال (دراسة) ١٩٦٨، * ام سعد (رواية) ١٩٦٩، * عائد الى حيفا (رواية) ١٩٦٩، * العاشق (رواية غير كاملة) بدأ بكتابتها عام ١٩٦٦، * الاعمى والاطرش (رواية غير كاملة)، * برقوق نيسان (رواية غير كاملة) ٧١ - ٧٢، * جسر الى الأبد (مسرحية)، ١٩٦٥ * المقاومة ومعضلاتها (دراسة) ١٩٧٠ * ثورة ٣٦ - ٣٩ في فلسطين (دراسة)، ١٩٧٢.

بالاضافة الى مجموعة اخرى من الروايات والدراسات السياسية والفكرية والتاريخية والنقدية التي لم تنشر في كتب. منها: *الشيء الآخر، او «من قتل ليلى الحايك؟» (رواية) نشرت على حلقات اسبوعية عام ١٩٦٦ * اللوتس الاحمر الميت (رواية)، ١٩٦١ * ثم اشرقت آسيا، (كتاب عن رحلة الى الصين) نشر على حلقات اسبوعية عام ١٩٦٥ * ترجمة «صيف ودخان» لتينيسي وليامس ١٩٦٤.

المحتويات

توضيح

المجموعة التالية من القصص القصيرة هي التي أمكن الحصول عليها مما سبق نشره في بعض الصحف أو المجلات في بلدان مختلفة وفي فترات متباعدة ، ولم يسبق أن حوتها المجموعات القصصية التي أصدرها غسان . على أن هذا لا يعني أنها كل ما كتب الشهيد من قصص قصيرة ، وهذا الكلام ينطبق أيضاً على الروايات وعلى مختلف المجالات التي كتب فيها لأنه يحدث دائماً أن نعثر خلال بحثنا ، على بعض القصص أو الروايات المنشورة أو المخطوطة . أما المقالات والمحاضرات والدراسات وما شابه فنعتقد اننا سوف نحتاج لفترة طويلة قبل أن يمكننا حصرها .

كما أن تاريخ نشر أي قصة يرد هنا لا يعني بالطبع تاريخ كتابتها . فقصة « القميص المسروق » مثلاً كانت من أوائل القصص التي كتبها الشهيد وقد نشرت في وقت لاحق لأنها كانت مشتركة في مسابقة للقصة جرت في الكويت ونالت فيها هذه القصة المرتبة الأولى ، وعرف غسان منذ ذلك الحين كقصاص .

ومما تجدر الاشارة اليه أيضاً هنا أن قصصاً أخرى تتضمنها هذه

المجموعة لم تنشر كقصة بل كصورة تصور أحداث فترة من الفترات التي مرت على العالم العربي . قصة « قرار موجز » مثلاً .

لجنة غسان كنفاني الثقافية

القميص المسروق

رفع رأسه الى السماء المظلمة وهو يقاوم شتيمة كفر صغيرة اوشكت ان تنزلق عن لسانه، واستطاع ان يحس الغيوم السوداء تتزاحم كقطع البازلت، وتندمج ثم تتمزق.

ان هذا المطر لن ينتهي الليلة، هذا يعني انه لن ينام، بل سيظل منكباً على رفشه، يحفر طريقاً تجر المياه الموحلة بعيداً عن اوتاد الخيمة، لقد اوشك ظهره ان يعتاد ضرب المطر البارد. . بل ان هذا البرد يعطيه شعوراً لذيذاً بالخدر.

انه يشم رائحة الدخان، لقد اشعلت زوجه النار لتخبز الطحين، كم يود لو أنه ينتهي من هذا الخندق، فيدخل الخيمة، ويدس كفيه الباردتين في النار حتى الاحتراق، لا شك انه يستطيع ان يقبض على الشعلة باصابعه، وان ينقلها من يد الى اخرى حتى يذهب هذا الجليد عنهما. . ولكنه يخاف ان يدخل هذه الخيمة، ان في محاجر زوجه سؤالاً رهيبا ما زال يقرع فيهما منذ زمن بعيد، لا، ان البرد اقل قسوة من السؤال الرهيب. ستقول له اذا ما دخل وهي تغرس كفيها في العجين، وتغرس عينيها في عيونه: هل وجدت عملاً؟ ماذا سنأكل اذن؟ كيف

استطاع (ابو فلان) ان يشتغل هنا وكيف استطاع (ابو علتان) ان يشتغل هناك؟ ثم ستشير الى عبد الرحمن المكور في زاوية الخيمة كالقط المبلول، وستهز رأسها بصمت ابلغ من الف الف عتاب.. ماذا عنده الليلة ليقول لها سوى ما يقوله في كل ليلة..

- هل تريدينني ان اسرق لاحل مشاكل عبد الرحمن؟

ونصب قامته بهدوء لاهث، ثم ما لبث ان عاد، فاتكأ على الرفش المكسور، وانشأ يحدق بالخيمة الداكنة مستشعراً قلقاً عظيما وهو يسأل نفسه:

- وماذا لو سرقت؟

ان مخازن وكالة الغوث الدولية تقع على مقربة من الخيام، ان قرر ان يبدأ فهو يستطيع بالتأكيد ان ينزلق الى حيث يتكدس الطحين والرز، من ثقب ما سيجده هنا او هناك، ثم ان المال ليس حلال احد، لقد اتى من هناك، من عند ناس قال عنهم استاذ المدرسة لعبد الرحمن انهم «يقتلون القتيل ويمشون في جنازته» فماذا يضر الناس لو انه سرق كيس طحين.. كيسين.. عشرة؟ وماذا لو باع شيئاً من هذا الطحين الى واحد من اولئك الذين يتمتعون بقدرة عظيمة على استنشاق روائح مسروقات، وبقدرة أعظم في المساومة على ثمنها؟

ولذت له الفكرة، فدأب بعزم اشد على اتمام حفر الخندق فيما حول الخيمة واخذ يسأل نفسه من جديد ان لماذا لا يبدأ مغامرته منذ الآن؟ ان المطر شديد والحارس مشغول بأمر البرد اكثر من انشغاله بمصلحة وكالة الغوث الدولية، فلماذا لا يبدأ الآن؟ لماذا؟

- ماذا تعمل يا ابا العبد؟

ورفع رأسه الى جهة الصوت، وميز شبح ابي سمير قادماً من بين

صفي الخيام المغروسة الى ما لا نهاية الظلمة..

ـ انني احفر طحيناً..

ـ تحفر ماذا؟

ـ احفر.. احفر خندقاً..

وسمع ضحكة ابي سمير الرفيعة التي سرعان ما تلاشت في ثرثرته:

ـ يبدو انك تفكر بالطحين، ان التوزيع سيتأخر الى ما بعد العشرة الايام الاولى من الشهر القادم، اي بعد خمسة عشر يوماً تقريباً، فلا تفكر منذ الآن الا اذا كنت تنوي ان تستعير كيساً او كيسين من المخزن..

ورأى ذراعٍ ابي سمير تشير باتجاه المخازن، ولمح على شفتيه السميكتين ظلاً لابتسامة خبيثة، وشعر بصعوبة الموقف، فعاد يضرب الارض برفشه المكسور.

ـ خذ هذه السيكارة.. ولكن لا، انك لن تستفيد منها فالمطر مزعج.. لقد نسيت ان السماء تمطر، عقل من الطين.. مثل الحجر..

واحس بضيق يأخذ بخناقه، انه يكره ابا سمير منذ زمن بعيد، هذا الثرثار الخبيث:

ـ ما الذي اخرجك في هذا المطر؟

ـ خرجت.. خرجت لاسألك ان كنت تريد المساعدة.

ـ لا.. شكرا..

ـ هل ستحفر طويلاً؟

ـ معظم الليل..

ـ الم اقل لك ان تحفر خندقك في النهار؟ انك دائماً تذهب الى حيث لا ادري وتترك الخيمة.. هل تذهب للبحث عن خاتم سليمان؟

ـ لا.. عن شغل..

ورفع رأسه عن الرفش وهو يلهث..

ـ لماذا لا تذهب لتنام وتتركني وحدي؟

واقترب منه ابو سمير بهدوء جم ووضع كفّه الكبيرة على كتفه يهزها ببطء وهو يقول بصوت مخنوق:

ـ اسمع يا ابا العبد، ان رأيت الآن كيس طحين يمشي من امامك فلا تذع الخبر لاحد!

ـ كيف؟

قالها ابو العبد وصدره ينبض بعنف، وشم رائحة التبغ من فم ابي سمير وهو يهمس وقد فتح عيونه على وسعها:

ـ هناك اكياس طحين تمشي في الليل وتذهب الى هناك..

ـ الى اين؟

ـ الى هناك..

حاول ابو العبد ان يرى الى اين يشير ابو سمير ولكنه وجد ذراعيه مسدلتين على جنبيه، بينما سمع صوته يهمس ببحة عميقة:

ـ ستأخذ نصيبك.

ـ هل هناك ثقب تدخلون منه؟

ورفع ابو سمير رأسه نافياً ومفرقعاً لسانه بمرح، ثم همس بصوت نصف مبحوح:

ـ ان اكياس الطحين تخرج لوحدها. . انها تمشي!

ـ انك مجنون. .

ـ لا، بل أنت المسكين. . اسمع، ولندخل في الموضوع مباشرة، ان ما علينا هو ان نخرج اكياس الطحين من المخزن ونذهب بها هناك، ان الحارس سيمهد لنا كل شيء كما يفعل دائماً، ان الذي سيتولى البيع ليس انا، ولا أنت، انه الموظف الأميركي الاشقر في الوكالة. . لا، لا تعجب، كل شيء يصبح جائزاً ومعقولاً بعد الاتفاق. الاميركي يبيع، وانا اقبض، والحارس يقبض. . وانت تقبض، وكله بالاتفاق، فما رأيك؟

وشعر ابو العبد ان القضية اشد تعقيداً من سرقة كيس او كيسين، او عشرة، وراوده شعور لزج بالقرف من المعاملة مع هذا الانسان. . ثقيل الدم كما تعارفوا عليه في المخيم كله. . ولكنه في الوقت ذاته راقه أن يعود يوماً الى خيمته وفي يده قميص جديد لعبد الرحمن، واغراض صغيرة لام العبد بعد هذا الحرمان الطويل، كم ستكون ابتسامتاهما جميلتين، ان ابتسامة عبد الرحمن، لوحدها، تستحق المغامرة لا شك، ولكنه لو فشل. . اي مصير اسود ينتظر ام العبد وولدها. . يومها سيحمل عبد الرحمن صندوق مسح الاحذية ليتكور في الشارع هازاً رأسه الصغير فوق الاحذية الانيقة، يا للمصير الاسود، ولكنه لو نجح فسيبدو عبد الرحمن انساناً جديداً، وسيقتلع من عيون زوجه ذلك السؤال المخيف. لو نجح، فستنتهي مأساة الخندق في كل ليلة ممطرة، وسيعيش حيث لا يستطيع أن يتصور الآن. .

ـ لماذا لا تترك هذا الخندق الملعون، لنبدأ قبل ان تشرق الشمس؟

نعم لماذا لا يترك الخندق. . ان عبد الرحمن يلهث من البرد في طرف

الخيمة، ويكاد يحس انفاسه تلفح جبينه البارد.. كم يود لو انه ينتشل عبد الرحمن من هزاله وخوفه، لقـد اوشك المطر ان ينقطع، وبدأ القمر في السماء يمزق طريقاً وعراً..

وابو سمير، ما زال واقفاً امامه كالشبح الاسود، غارساً قدميه الكبيرتين في الوحل، رافعاً ياقة معطفه العتيق الى ما فوق اذنيه، انه ما زال واقفا ينتظر، هذا الانسان الـواقف أمامه، يحمل معه قدراً جديداً غامضاً، يساومه ليرفع معه الاكياس من المخزن، الى مكان ما، يأتيه الاميركي كل شهر ويقف امام اكوام الطحين يفرك راحتيه النظيفتين، ويضحك بعيون زرقاء كعيون قط يتحفز امام جحر فأر مسكين.

- منذ متى وانت تتعامل مع هذا الحارس وذلك الموظف؟

- هل تريد ان تحقق معي ام تأخذ ثمن الطحين وتذهب لتشتري الشياطين؟ اسمع ان هذا الاميركي صديقي، وهو انسان يحب العمل المنظم، انه يطلب مني دائماً ان اضع الوقت بالمقدمة. وهو لا يحب التأخير في المواعيد.. علينا ان نبدأ الآن. اسرع.

وعاد يتصور الاميركي واقفاً امام اكياس الطحين، يضحك بعيون زرقاء ضيقة ويفرك راحتيه النظيفتين بحبور وطمأنينه، فشعر بضيق غريب، وخطر له ان ذلك الاميركي كان يبيع الطحين في الوقت الذي كان يقول فيه لرجال المخيم ولنسائه ان توزيع الاعاشة سيتأجل الى نهاية الايام العشرة الاولى من الشهر، واحس بنقمة طاغية، هي صدى لاحساساته يوم كان يرجع من المخازن ليقول لزوجته بصوت كسير انهم اجلوا توزيع الطحين عشرة ايام، كم هي مؤلمة خيبة الامل التي كانت ترتسم في وجهها الاسمر المجهد، لقد كان يحس الغصة تتعلق بألف ذراع في حنجرته وهي تنظر بصمت مريع الى كيس الطحين الفارغ

يتأرجح على ذراعه كالمشنوق . . لقد كانت تعني في نظرتها تلك ان عشرة ايام ستمضي قبل ان يجدوا طحيناً للاكل . كان يبدو له ايضاً ان عبد الرحمن يفهم الموقف تماماً، لقد كان يكف عن طلب الاكل بإلحاح . .

في كل خيام قرية النازحين كانت العيون المتلهفة تقع في خيبة الأمل ذاتها، كان على كل طفل في المخيم ان ينتظر عشرة ايام ليأكل خبزاً . هذا اذن هو سبب التأجيل، ابو سمير الواقف امامه كالشبح الاسود، غارساً قدميه في الطين قلقاً لمصير مساوماته، هو والاميركي الذي يفرك راحتيه النظيفتين امام اكوام الطحين وهو يضحك بعيون زرقاء ضيقة .

لم يدر كيف رفع الرفش الى ما فوق رأسه وكيف هوى به بعنف رهيب على رأس ابي سمير . . ولم يدر ايضاً كيف جرته زوجه بعيداً عن جسد ابي سمير، وهو يصيح في وجهها ان الطحين لن يتأجل توزيعه هذا الشهر . .

كل ما يدريه هو انه عندما وجد نفسه في خيمته مبلولاً يتقطر ماء ووحلاً، ضم الى صدره ولده عبد الرحمن وهو يحدق في وجهه الهزيل الاصفر . .

كان لا يزال راغباً في ان يراه يبتسم لقميص جديد . .

فأخذ يبكي . . .

الكويت ١٩٥٨

إلى أن نعود

.. مع اشعة الشمس التي كانت تأكل رأسه وهو يضرب وحيداً في صحراء النقب، كان يسمع صخب افكاره في رأسه كأنها مجموعة مسامير تدق.. ولا تنغرس.

ان انفه يعمل الآن تماماً كما تعمل البوصلة، وهو يشعر أنه يقترب من هدفه ، انه يعجب لنفسه كيف لم ينقطع عن التفكير العنيف طوال هذه الساعات الممضة، لقد فكر في هذه الساعات كما لم يفكر ابداً طوال ثماني سنوات.

ويغرس قدميه في الرمال الناعمة، ويقتلعها كما تقتلع قطعة الخشب العتيقة عن غراء لم يجف بعد كما يجب ، ثمة أحاسيس ضخمة تمتلك عنه ذكرياته، ان هذه الاحاسيس لتتداخل في بعضها وتتشابك حتى ليشعر انها لازمته زمناً طويلاً، ويصعب عليه الآن ان يتصور نفسه كيف كان بدونها.. انه عطشان الى حد يشعر فيه بأن حلقه اضحى جافاً جامداً، فلم يعد ثمة ضرورة لبقائه، ويشعر بالتالي انه تعب، مرهق، يكاد يتهاوى، كأنما انتهى لتوه من شد قارب كبير من البحر إلى رمل الشاطىء المبلول..

لكنه مع هذا كله، كان يسير، مندفعاً كأنه يسابق نفسه، كان نصفه العلوي يتقدم منحنياً عن بقية جسده. . فالرمل الناعم يعيق سرعة قدميه، كان قصيراً، اسمر البشرة، محروقاً، لم يكن في وجهه اي شي ء يستلفت النظر لاول وهلة، كل ما هنالك ان لفمه شفتين رقيقتين تنطبقان في تصميم، ان شكل وجهه يثير في الانسان ـ لدن تدقيق النظر ـ شعوراً بأنه يشاهد حقلاً صغيرا ، بل واكثر من هذا، فان الخطين اللذين يشقان جبهته يحب الانسان ان يشبههما بآثار «شفرات» محراث مر لتوه من ذلك المكان. .

لقد بدأت رائحة ارضه تذيب احاسيسه، شي ء جميل ان يشم المرء جزءاً من ماضيه، ان رأسه الآن تنفتح كأنها صندوق عرس منقوش بالصدف ويحوي كل شي ء، ويرى فيه داره الصغيرة الرطبة، وزوجه ترش التراب بالماء، ثم يرى نفسه آتياً من حقله بقدميه الموحلتين، ان الصورة يراها امامه هكذا، بل واكثر من ذا، كأنه يستعيد منظراً عاشه قبل دقائق فحسب، انه يرى الصورة بكل تقاطيعها الدقيقة، حتى ليرى نفسه كيف يسير، لم يتيسر له قبل الآن ان يراقب سيره بهذا الوضوح وهذا الإمكان.

وهو يقترب من ارضه، هكذا يشعر في اعماقه عندما بدت له اول (بيارة) من (بيارات) أهل قريته ، ابتدأ الصوت الذي ودعه على فوهة النقب الجنوبية يدق رأسه ، ويتجاوب صداه في جسده :

- «هي ارضك، الم تعش هناك؟ حسناً، انك تعرفها اكثر من سواك، في واحد من الحقول بنى اليهود خزاناً يسقي المستعمرات القريبة، اعتقد انك فهمت، ان الديناميت الذي تحمله يكفيك. . . ».

لم يتكلم بعدها، بل انطلق عبر النقب وحيداً، وحيداً الا من هذه

الزوبعة التي تثور في اعماقه.. وها هي ارضه، حيث درج يلهو، تستلقي في احضان الجبل باستسلام.

وانزلق بين الحقول الخالية في حذر، مستمداً من رائحة ترابه شعوراً بقدرة لا تقهر، واصابعه تطبق على سكينه في تهيؤ «وحشي». ان رأسه تشتط به وتختلط في تاريخ الحقول التي يعرفها جيداً، ويجد عنتاً شديداً في العودة الى الحقيقة..

وعندما استدار حول حقل كان لأبي حسن - جاره - في يوم من الايام، رأى نفسه يشد رأسه عالياً وهو يرقب بشعور غامض خزان المياه، يرتفع كأنما ليصل الارض بالسماء.. يؤمّن الماء للارض التي كان يجهد ليؤمن لها الماء. لكنه ساءه ان يقف الخزان، هكذا، في الحقل المعطاء.. انه بوقوفه هذا يشوه احساساً جميلاً احسه هو، وجميع جيرانه، طوال حياتهم.. انهم، الفلاحين، يحسون الارض احساساً بينما ينظر سواهم اليها كمشهد عابر، ان اي حقل، يبعث بالفلاح شعوراً تلقائياً بأنه - ذلك الحقل - يحرس عادة كل شيء فيه حراسة صميمية، ان الحقل، اي حقل، يلقي على موجوداته ظل الابوة مهما عظمت، فيشعر الانسان انها في حماية قوة غامضة، هائلة، مخيفة، لكنها محببة..

ولكن الخزان يدمر هذا الاحساس، وهو واقف هناك كحقيقة مرة تعطيه نوعاً آخر من المشاعر، بل انه يحس احساساً عميقاً ساكناً بأن الأرض نفسها ترفض الخزان.. لا تريد ان تحميه، انه يعني شيئاً آخر، غير الري والماء، شيئاً كبيراً دامياً كالمأساه.

وحبس انفاسه وهو يرقب من خلال العواسج ارضه التي سكب عليها عرقه ليخلقها من العدم، ها هو ذات البيت الصغير الذي كان

يأوي اليه مع زوجه ايام العمل المتواصل في موسم الحصاد، فلقد كان بيتاً جميلاً على ما فيه من تواضع، اما الآن، فلقد تهدمت ناحية منه، والناحية الثانية التي تتكىء على صخور الجبل قد علاها الغبار وصبغتها ذرات رصاصية من دخان (الموتور)، ان الخزان يقتحم حياته بشكل مزعج، لقد اقيم في الساحة التي كان يجلس فيها وزوجته قبل ان يناما، يتحدثان فيها عن الذرة والقمح، لقد كان في مكان قائمة الخزان الأقرب للدار شجرة اجاص فريدة في نوعها، كان يحبها ويعتني بها، هنا، قرب الباب المتداعي كانت تنام زوجه ليالي الصيف، كان في تلك الايام يدعو جيرانه للجلوس، فتسرع زوجته وترش الساحة بالماء فتكسبها رطوبة محببة.

وفجأة، وبدون اي سابق اعلام، سقطت من اعماقه اللاواعية الى حياته الواعية صورة مدوية مروعة، اجتاحته كالطوفان، هوت الى حواسه كلها دفعة واحدة فشغلتها كلها. قبل ان يرحل بيوم واحد.. بيوم واحد فقط، دخل اليهود الى البيارات، ووجد ان عليه ان يترك - ولو الى حين - ذلك العطاء.. وجر زوجه وترك ارضه، وسار.. الا انه قبل ان يجتاز باب حقله المقطع، دنا الى زوجه، والفى نفسه مشدوداً الى دمعة كبيرة في عينيها الواسعتين.. كأنما هي ذوب حنين.. كان يريد ان يقاوم لكنه رأى نفسه محاطاً بالتساؤلات التي غرستها دمعة زوجه في عروقه الزرقاء: الى اين؟ وارضك؟ اليس من الافضل ان تعيد الى التراب عطاءه لحماً ودماً؟

ودون ان يتكلم، سحب زوجه من يدها الى حقله، ولم يستطع ابداً ان يحرر نفسه من النداء الطيب في العيون الواسعة..

في تلك الليلة.. شنق اليهود زوجه على الشجرة العجوز بين الساحة

والجبل، انه يراها مدلاة عارية تماماً. . كان شعرها محلوقاً ومربوطاً الى عنقها وينزف من فمها دم اسود لماع. . لقد شدوا خصرها النحيل شداً مجنوناً، لم يكن في وجهها كله ما يشير الى انها كانت، قبل هنيهة، تملأ الساح رصاصاً وناراً ودماً، في ذلك الوقت، كان هو مربوطاً الى الشجرة المقابلة يشهد كل ما فعلوه عاجزاً، لقد شدوه الى الشجرة بحبال الحراثة بعد ان سلخوا ظهره بالكرابيج الجلدية طوال بعد الظهر، وتركوه يشهد كل شيء، تركوه يحدق ويصيح كالمجنون. . لقد حشوا فمها بالتراب عندما قالت له: (مع السلامة) وماتت. وتركوه يمضي كي يموت بالصحراء مع ذكرياته. .

انه لا ينظر الآن الى هذه الصورة نظرة المشاهد، لا، ابداً، انها تتفاعل بأعماق اعماقه ويحسها ويراها تنسكب على اعصابه كالرصاص المذاب، ان ذاته تتفاعل الآن مع الماضي بشكل عجيب، لم يستطع ان يخلع نفسه من الصورة الدموية، ولا ان يخلعها من نفسه، كان حاضره يمتزج بماضيه مزجاً معقداً، ان صوت استغاثات زوجه وانينها المقطع المحروق، وصوت اسنانها تمضغ التراب، وصوت حنجرته وهي تطبق على صياحه في بحات هستيرية، كل هذا، كان يمتزج امتزاجاً متشابكاً بصوت الانفجار المريع، وصوت الخزان العملاق يقتلع من الوجود. .

ويمتص الدخان الاسود بعض احاسيسه الدامية، ويرنو الى الحطام بهدوء صاخب. .

●

لقد عاد في المساء الى خيمته، كان متعباً منهوكاً، يحس كأنما قد تباعدت مفاصله عن بعضها، وعلى عضلاته ان تتوتر الى الابد كيما تنشد بينها، واحس وهو يصافح الانسان الذي ودعه قبل ان يذهب الى

مهمته انه لا زال في المعركة التي بدأت منذ زمن بعيد. . وسمع صوته: ماذا؟ هل انتهى كل شيء على ما يرام؟

- وهز رأسه في اعياء. . وعاد يسمع صوت الرئيس:

- هل انت تعب؟ وهز رأسه نفياً وهمس بصوته العميق المجروح:

- هل اعددت مهمة صباح الغد؟

ووصله صوت رئيسه من بعيد:

- ولكنك لا تستطيع أن تتابع غداً. . يجب أن تستريح. .

ودون ان يفكر اجاب: بل استطيع. .

- الى متى تحسب انك تستطيع ان تواصل على هذه الصورة؟

قال وهو يسند رأسه على كيس المتفجرات:

- الى ان نعود. .

دمشق ٢٤ / ٦ / ٥٧

المدفع

لقد عرفه الجميع. . وكادوا ان يعهدوا وجهه كجزء لا ينفصل عن القرية كلها: وجهه المربع يعترضه حاجبان يتصلان ببعضهما باخدود يعين طرف انفه العلوي، وانفه المفلطح تدور بأسفله دائرتان واسعتان فوق شارب رمادي كثيف، يتدلى، فيخفي شفته العليا. . اما ذقنه فلقد كانت عريضة حادة، كأنها قطعت لتوها من صدره، ومن ثم، بردت رقبته الثخينة برداً.

ان سعيد الحمضوني نادراً ما يتكلم عن ماضيه ، انه دائماً يتحدث عما سيأتي، وما ينفك يعتقد ان غداً سيكون احسن من اليوم، ولكن اهل (السلمة) كانوا يتناقلون فيما بينهم، بشي ء كثير من المبالغة، اخبار سعيد الحمضوني ايام كان يقود حركات ثورية في ١٩٣٦، يقولون - هناك في القرية - ان سعيداً اطلق سراحه من المعتقل لانه لم يدن. . ويقال انه لم يقبض عليه بعد، ومهما يكن، فهو الآن يملأ القرية، ويربط الصبيان بوجهه كل احاسيسهم وتخيلاتهم التي يرسمونها للرجل الممتاز. . وليد المغامرة القاسية. .

لقد عاد سعيد مؤخراً من يافا، واحضر معه رشاشاً من طراز

(الماشينغن) كان قد قضى قرابة اسبوع كامل يجمع ثمنه من التبرعات، ومع ان سكان السلمة كانوا على يقين كبير ان ثمن مدفع من هذا الطراز لا يمكن ان يجمع من التبرعات، فلقد آثروا ان يسكتوا، لان وصول المدفع الرائع اهم بكثير جداً من طريقة وصوله، فالقرية في اشد الحاجة الى اي نوع من انواع السلاح، فكيف اذا حصلت على سلاح من نوع جيد؟ . .

لقد عرف سعيد الحمضوني ماذا يشتري! ان هذا المدفع، مدفع (الماشينغن)، كفيل برد اي هجوم يهودي مسعور، انه نوع راق من السلاح، والقرية في اشد الحاجة اليه. . فلماذا يفكرون في طريقة وصول المدفع؟. ولكن سكوت رجال السلمة، لا يعني سكوت نسائها، لقد بقيت المشكلة بالنسبة لهن تلح الحاحاً قاسياً، ولما لم يجدن من يدلهن على حقيقة الامر، استطعن ان يقنعن انفسهن، ان سعيد الحمضوني كان قد سلم في ثورة **١٩٣٦** مدفعاً من هذا الطراز ابلى من خلفه بلاء حسناً، ثم خبأه في الجبال الى ان آن اوان استعماله من جديد. . ولكن التساؤل بقي متضمناً في اعمق اعماق سكان السلمة، لم يكن من اليسير ان يجمع الانسان ثمن مدفع من طراز الماشينغن. . اذن فمن اين اتى سعيد الحمضوني بهذا المدفع؟ نعم. من اين؟

المهم. . ان هذا المدفع الاسود صار قوة هائلة تكمن في نفوس اهل السلمة، وهو يعني بالنسبة لهم اشياء كثيرة، اشياء كثيرة يعرفونها، واشياء اكثر لا يعرفونها. . ولكنهم يشعرون بها، هكذا، في ابهام مطمئن. . ان كل كهل وكل شاب في السلمة، صار يربط حياته ربطاً وثيقاً بوجود هذا المدفع، وصار يستمد من صوته المتتابع الثقيل، اثناء تجربته في كل امسيتين، نوعاً من الشعور بالحماية. .

وكما يرتبط الشيء بالآخر، اذا تلازما، ربط الناس صورة المدفع

بوجه سعيد الحمضوني المربع، لم تعد تجد من يفصل هذا عن ذاك في حديث الدفاع عن السلمة، ان سعيد الحمضوني اصبح الآن ضرورة مكملة.. بل اساسية، للمدفع، وعندما يتحدث الناس عن سعيد، كانوا يشعرون انه اداة من ادوات المدفع المعقدة.. شيء كحبل الرصاص، كقائمتي المدفع.. كالماسورة: كل متماسك لا تنفصل اطرافه عن بعضها. بل واكثر من ذلك، لقد صار يربط سعيد الحمضوني حياته نفسها ربطاً شديداً بوجود المدفع. كان المدفع يعني بالنسبة له شعوراً هادئاً بالطمأنينة، شعوراً يوحي بالمنعة: فهو دائم التفكير بالمدفع، دائم الاعتناء به، تكاد لا تراه الا وهو يدرب شباب القرية على استعماله، ويدلهم في نهاية التدريب على المكان الذي وضع فيه خرقة لمسح المدفع، هذا المكان الذي سيصير - فيما بعد - معتاداً.

ومع مرور الايام بدأ سعيد الحمضوني يتغير.. لقد تبدل لونه عن ذي قبل. وبدا كأنه يضمر شيئاً فشيئاً، واحس شباب السلمة ان سعيد الحمضوني صار يبدو اكبر من ذي قبل، وانه صار يفقد هذه الحركة الحية في وجهه وفي صوته.. انه صامت الآن، صامت الى حد يخيل للانسان معه انه نسي كيف كان يتكلم الناس، وصار شيئاً مألوفاً ان يجده الناس منطلقاً الى جنوب السلمة، حيث ركز المدفع، ليجلس وحيداً بقربة الى العشية.

هذا الرجل الجبار.. الهادىء.. الثائر.. هل كان يعتقد انسان انه سيرتجف كذرة من القطن المندوف على قوس المنجد؟ لقد فتحوا عليه باب داره والصباح يوشك ان ينبلج، وتضاخمت امامه كتلة سوداء، ضربت الأرض، وبرز منها صوت احد رجاله، يدور كالدوامة، ليبتلع كل احساس بالوجود:

- المدفع.. لقد اصابه العطب.. ان ماسورته تتحرك بغير ما

توجيه. . اليهود يتقدمون.

واحس سعيد الحمضوني بقوة جبارة تقتلع من جوفه شيئاً يعز عليه ان يضيع منه، شيئاً كقلبه لا يستطيع ان يتابع وجوده الا معه. . كان يشعر بكل هذا وهو منطلق عبر الحقول الباهتة النائمة في آخر الليل. . ووصل الى حيث كان الرشاش يتكىء كالطفل الميت على الاغصان اليابسة، كل شيء ساكن، الا طلقات البنادق الهزيلة، تحاول عبثاً الوقوف في وجه الهجوم. . اما المدفع. . اما جهنم. .

وهز سعيد الحمضوني رأسه وكأنه يواسي نفسه بمصاب ابنه، ثم فكر: ان لا بد من اجراء. . لا بد. . شيء قوي كالكلابة يجب ان يمسك الفوهة الهاربة الى بطن المدفع. . شيء قوي. .

- اسمع. . سأشد الماسورة الى بطن المدفع بكفي. وحاول ان تطلق. . لا يوجد اية دقيقة لتضيع في الكلام. . دعنا نجرب،

- لكن. .

- اطلق!

- سيرانا اليهود وانت فوق الحفرة.

- اطلق!.

- ستحرق كفيك بلهب الرصاص. .

- اطلق. . اطلق!.

وبدأ المدفع يهدر بصوته المتتابع الثقيل ، ومع صوته المحبوب ، شعر سعيد الحمضوني بنفسيته التي تغذت طويلاً بالثورة والدم والقتال في الجبال ، شعر بأنها النهاية . . نهاية تاق اليها طويلاً وها هي ذي تتقدم اليه بتؤدة ، كم هو بشع الموت . . وكم هو جميل ان يختار

الانسان القدر الذي يريد.. وسمع صوته من خلال دقات الرصاص:

ـ اسمع اريد ان اوصيك وصية هامة..

وعاد يصيخ الى المدفع واستخلص من صوت الرصاص ثقة جديدة ليتابع وهو يحاول ان يمضغ ألمه:

ـ قرب قرية (ابو كبير)، ابعد منها قليلاً، يوجد مستشفى للسل.. عرفته؟ حسناً! لي هناك مبلغ جيد من المال، قالوا لي.. ان ارجع لاقبضه بعد ان يفحصوا الدم.. انا متأكد انه.. دم جيد.. في كل مرة يقولون انهم يريدون ان يفحصوا الدم كأن دم الانسان يتغير في خلال اسبوع ونصف.. اسمع.. ان ثمن المدفع لم يسدد كله.. ستجد اسم التاجر في داري.. هو من يافا. لقد دفعت قسماً كبيراً من ثمنه من تبرعاتكم. لقد اوشك ثمنه ان يتم.. هل تعرف انهم يشترون الدم بمبلغ كبير؟ لو عشت شهرين فقط؟ شهرين آخرين لاستطعت ان اسدد كل ثمنه.. انني اعطيهم دماً جيداً.. ثمنه جيد.. خذ حسن وحسين واذهب الى ذلك المستشفى.. الا تريد ان يبقى المدفع عندكم.. ان حسن وحسين.. ولدي.. يعرفان كيف يذهبان الى هناك.. لقد كانا يذهبان معي في كل مرة.. ان دماءنا جميعاً جيدة.. جيدة جداً.. القضية قضية الحليب الذي رضعناه. قضية.. اريد ان اقول لك شيئاً آخر.. اذا تراجع اليهود هذه المرة.. تكون آخر مرة يهجمون بها من هذه الناحية.. سيخافون.. فعليكم ان تنقلوا المدفع الى الشمال.. لان الهجوم التالي سيكون من هناك..

واشتد شعوره بالنار تلسع كفيه بقسوة.. واحس احساساً ملحاً انه لو كان في صحته العادية لاستطاع ان يقاوم احسن من الآن، وراوده شعور قاتم بالندم على انه سلك في شراء المدفع ذلك السبيل، ولكنه

احس احساساً دافقاً ان المدفع طرف آخر من الموضوع، طرف هام. . ان وجوده يحافظ على اهميته قبل ان يموت هو، وبعد ان يموت. . فأغمض عينيه، وحاول جاهداً ان يحرر نفسه من سجن ذاته كي ينسى ألمه. . لكنه لم يستطع. . فأسقط ركبته على الارض في ثقل. .

وعلى صوت الطلقات المتقطعة بانتظام وعنف. . احس سعيد الحمضوني بأشياء كثيرة. . كأنها ملايين الأبر تدخل في شرايينه فتسلبه ما تبقى من دمه، ثم شعر بأطرافه جميعها تنكمش كأنها ورقة جافة في نهاية الصيف. . وبجهد شرس حاول ان يرفع رأسه ليشم الحياة، الا انه وجد نفسه فجأة في تنور من ذلك النوع الذي يكثر. . في السلمة، والذي عاش الى جواره فترات طويلة من صباه، وجد نفسه في ذلك التنور جنباً الى جنب مع الأرغفة الساخنة تحمر تحت السنة اللهب، ورأى، بعينيه، فقاقيع العجين الملتهبة، تطير عن رغيف المرقوق وتلتصق على شفتيه، وشعر بيد قاسية تشد رأسه الى ادنى. . الى ادنى. . الى ادنى. . فيسمع لفقرات رقبته صوتاً منتظماً ثقيلاً وهي تتكسر تحت ثقل رأسه. . واحس انه فعلاً لا يريد ان يموت، واعطته الفكرة دفقة اخرى من الحياة. . فاكتشف ان صوت تكسر فقرات رقبته هو صوت الرصاص الذي ينطلق من المدفع الرشاش، وشعر بمواساة من نوع غريب، مواساة تشبه تلك التي يراها الوالد في ولد عاش بعد مصرع اخيه، فابتسم باطمئنان، وخرج من (التنور) لكنه شعر انه لم يلمس الارض بقدميه. .

***

وشيعته القرية كلها الى مقره الاخير. . او الاول. . سيان. .

دمشق ١٢ / ٨ / ٥٧

دَربٌ الى خائِن

رأيناه أول مرة جالساً في واحدة من تلك العرائش المتناثرة على طول الطريق الممتد في الصحراء بين (بغداد) و(المفرق).

ان المسافر في سيارة صغيرة، قادماً من الكويت، ومارأ بالبصرة وببغداد ومتجهاً عبر الصحراء الكبيرة الى محطة (الاتشفور) في الاردن ومنها الى عاصمة الاردن، اقول، ان المسافر في ذلك الطريق يستطيع ان يستريح في عرائش صغيرة بناها بعض رجال البدو بين مسافة واخرى، يقدم فيها الشاي الاسود والكعك العتيق وابتسامة المضيف البدوي.. وفي واحدة من تلك العرائش قابلنا محمود ـ الذي لم يتيسر لي ان اعرف اسمه الاخير ـ لأول مرة..

كنت اشارك زميلاً لي في سيارته الصغيرة قادماً الى دمشق، ولجأنا بعد مرور منتصف الليل الى تلك العريشة، واستقبلتنا بضعة كلاب متوحشة بنباح طويل مبحوح خرج على أثره بدوي طويل يحمل في يده فانوساً صغيراً ورجانا أن نجلس على علية خشبية وان ننتظر الشاي..

كانت الصحراء تترامى في مواجهتنا طويلة صامتة يضيئها القمر

ضياء ناعماً خفيفاً. . وكانت ثمة أنسام باردة تمر برفق عبر العريشة، وتعطي الجو قداسة خاصة. لم اكن أحس برغبة في الكلام او السماع، كنت اريد ان انظر فقط. . ورغم ذلك فقد احسست غبطة ما عندما سمعت صوتاً يأتي من العلية الخشبية المقابلة:

- لا ينقص هذا الجو الا صوت فيروز. .

لم اشك في ان المتكلم هو سائق سيارة (الديزل) الكبيرة الواقفة في محاذاة العريشة، ولاحظت عندما نظرت اليه انه لا يختلف عن معظم سائقي (الديزل) الذين رأيتهم في العرائش السابقة والذين يعملون في نقل الخضار الى الرياض او الكويت. . كان جالساً على العلية رافعاً ركبته الى ذقنه مطلاً من فوقها بهدوء الى الصحراء الواسعة. . كان ضخماً، قوياً، يبدو تماسك لحمه من تحت قميصه الازرق المتسخ بالشحم، كنت استطيع ان أعرف، دون ان أرى، ان الشعر الخشن قد ملأ ذقنه وفوديه لأنه لم يحلق منذ يومين كاملين. . وكان زميله جالساً في ظله هو الآخر، كالشبح. . كانا ينظران الى الصحراء.

ورغم ذلك، كنت اشعر انني غير راغب في الحديث، ولكن الصوت عاد يقول:

- فيروز. . ان لها صوتاً رائعاً. . قل لي يا أخ. . هل انت من سورية. . انني اعرف سورية. . انها بلد جميلة. .

وقلت أجامله فيما انا أدير وجهي بالاتجاه المعاكس. .

- نعم. . انها جميلة. . هل انت سائق هذه السيارة؟.

- لا. . انني المعاون. . او انني المسافر. . انني اقول المعاون عندما نصل الى نقطة من نقاط الحدود، واقول المسافر عندما اكون حراً لأقول ما اشاء. .

وعرفت لتوي انني امام انسان غير عادي، من اولئك الذين يكثرون في هذه الاماكن الغريبة، وهيأت نفسي لسماع قصة عجيبة، ورغم كل هذا، لم اعطه الفرصة ليبدأ في ذلك..

ـ لماذا لا تشرب الشاي ساخناً؟.. انك مسافر غير محترف.. اشربه انه يعطيك حرارة تكفيك لكي تصل الى (الاتشفور).. هل انت ذاهب الى هناك؟

واحسست به يجرني للحديث فأجبت باقتضاب:

ـ نعم.

ـ اما انا فلا.. انني ذاهب الى اللد.. هل سمعت عن اللد؟ لقد باعها الملك عبد الله لليهود.. نعم.. انا ذاهب الى اللِّد.. ولكن لا.. اننا نشترك في الطريق الى (المفرق) ثم نفترق. انا الى اللد.. وانتم..

قال زميلي وقد استوى في جلسته..

ـ الى اللد؟

ـ أريد أن أذهب لكي اقتل انساناً.. ثم لأعود الى الكويت. سأقتله بمسدس (موزر) مدفون في المقبرة.. دفنته قبل ان اخرج، اقول لك الحقيقة.. لم اكن افكر وانا ادفنه انني سأستعمله في يوم ما لغرض نبيل الى هذا الحد..

وسألته انا هذه المرة:

ـ من تريد ان تقتل؟

ـ اخي..

وصمت.. وعاد يسند ظهره، ووقف البدوي وقد كان على وشك

ان يدخل العريشة واستدار ينظر اليه، وندت عن زميلي صيحة صغيرة مكتومة. . وقال كليهما، زميلي والبدوي، في نفس واحد. .

ـ اخوك؟

ـ نعم. .

وسكت مرة اخرى. . ثم قال بهدوء:

ـ انه خائن . . انه يعمل لحساب اليهود . قالوا لنا ذلك ، قلنا : يريد أن يعيش . . قالوا : ألا يجد طريقاً آخر . . قلنا : هو حر . . أما الآن فالأمر يختلف تماماً . .

ـ ماذا صنع؟

ـ قبل عدة اسابيع، قدم وشاية الى اليهود عن اولاد عمه، انتم تعرفون انهم هناك يقومون ببعض اعمال صغيرة. . لقد وشى. . فسجنوا. . وقررت يومها ان اذهب واقتله. . ولكنني فكرت قليلاً، ثم عدلت . .

ـ بماذا فكرت؟.

وقبل ان يجيب سأله البدوي بصوت اجش وهو لا زال واقفاً على باب عريشته:

ـ لماذا لا يقتله اولاد عمه؟

ـ انهم لا يعرفون انه هو الخائن. . ان واحداً فقط يعرف. . انا. . قلت لكم لقد فكرت قليلاً فعدلت. . هذا صحيح، ، ان امه تحبه كثيراً، انتم تعرفون كيف تحب العجوز اصغر اولادها بعد وفاة زوجها. فخفت ان اقتله فيقتلها الحزن. . انني احب امي. . ويجب ان نحترم هؤلاء العجائز. على اي حال. . لقد حلت المشكلة على

نحو غير متوقع . . لقد تدخل القدر لينهي المهزلة . . لقد ماتت امي قبل اسبوع واحد . . صدقوني انني فرحت بموتها اكثر مما حزنت . . ان الله، فوق، يعرف كيف يتصرف . .

وصمت مرة اخرى . . واحسست برغبة في سماع البقية . . وركض البدوي خلف كلابه ورجمها بالحجارة طامعاً ان تكف عن النباح وعاد مسرعاً فوقف متكئاً على الباب.

ـ رصاصة . . وينتهي الخائن . . كل رجائي ان اصل الى اللد قبل ان يمسكني اليهود . . ان التسلل من اصعب الامور واسهلها في آن واحد . . .

قال ذلك، ونهض متجهاً الى السيارة، تابعاً زميله الصامت. حتى اذا ما وصل الى الباب . . استدار نحونا وقال بصوت عال:

ـ كنت اوشك ان اقدم (مترك لندن) قبل ان نخرج من فلسطين، ولكن الحرب منعتني من ذلك . . فالفرق بيني وبينكم انكم تحملون هذه الورقة، هذه الشهادة، وبالتالي فأنتم تصرون على لبس المعاطف واربطة العنق . . الى اللقاء . . وصعد الى السيارة، وهدر المحرك صاخباً وتابعنا بعيوننا الضوء الاحمر وهو يذوب في الظلام . . كان البدوي لا زال واقفاً على الباب . .

فقال وكأنه ينتشل نفسه:

ـ عجيب!

وسألني رفيقي:

ـ لو فرضنا انه وصل، فكيف سيرجع؟

ـ ان الذي يدخل يستطيع ان يخرج، انها نوع من المقامرة.

وعاد يسأل:

- كيف يمكن أن يقتل شخصاً ما أخاه ؟ . هل يستطيع أن يتحمل منظر دمه وهو يسيل ؟

- ليس من الضروري ان ينظر الى الدم بعد ان يقتل، المهم هو ان يبدأ في القتل..

- انه مجرم..

- انه قديس..

وقال زميلي وهو يتوجه الى سيارته تاركاً البدوي لوحده:

- انني اعتقد انه ثرثار كذاب..

***

قابلناه مرة ثانية قرب «حدود» الاردن، واقفاً يتكلم مع زميله سائق السيارة.. وشجعني ترحيبه على سؤاله:

- هل ستعود الى الكويت اذا نجحت الخطة؟.

وتطلع الي متعجباً وهو يسأل:

- اذا نجحت الخطة؟

فهززت برأسي وانا اقول:

- نعم.. خطة التسلل الى الارض المحتلة..

فقال وهو يبتسم هازاً رأسه..

- ايها المثقف، الم تسمع عما جرى هنا، في الاردن، انني لا استطيع ان ادخل الى الاردن الآن.. لماذا؟ لأنني كنت «فوضوياً» ايام كان (ابو حنيـك) يحكم الاردن.. انهم يدرجون اسماء اولئك «الفوضويين» كلما

اوحى (ابو حنيك) بخطة جديدة. . ان (ابو حنيك) هذه المرة يلبس ثوب صاحب الجلالة. .

ـ اذن ماذا ستعمل؟

قال وهو يشير الى الافق:

ـ سأتسلل الى الاردن اولاً. .

دمشق ٩ ـ ٩ ـ ١٩٥٧

البطل في الزنزانة

قرأت لك اخيراً مجموعة لا بأس بها من الاقاصيص المنشورة هنا وهناك، وسرني بالفعل انك قد تخلصت الى حد بعيد من ذلك الافتعال اللزج الذي يثقل طبيعة القصة، ويعرقل انسياب حوادثها. ان اصعب ما في كتابة القصة، هو التخلص من ذلك الافتعال، لكنني، واصدقك القول، لا افهم تماماً ماهية هذا الذي يدعونه «افتعال»، فان كان يقصد منه ضعف الاسلوب وتقصيره عن اظهار الحادثة بشكلها الطبيعي، فأنا موافق، اما اذا قصد منه ان الحادثة في القصة هي حادثة تعوزها الامكانية والعفوية، او انها حادثة بسيطة الى حد ليس لها فيه اية قيمة، فأنا لا اوافق، اذ انني اعرف قصة حدثت حقيقة مع واحد من اصدقائي، وكلما فكرت في ان اكتبها، لمحت فيها، مقدماً، خطوطاً ثخينة من هذا «الافتعال» تحدد بعض جوانب حوادثها. . لماذا؟ انني في الحقيقة لا ادري، او، ولاعترف بذلك، ان حوادث القصة ذاتها ليس فيها اشياء كثيرة تحفظ عليها بنيانها القصصي. واخاف ان ازيد على احداثها كي اخلص من الضعف والافتعال، فأقع في الكذب.

فأنا، على هذا، احب ان اكتبها لك كما هي، احتراماً للبطل

وللحادثة، وكما حدثت قبل عدة اشهر دون ان ازيد فيها او ان انقص. . وعليك انت ان تجرب فيها القواعد التي قلتها عن كتابة القصة، ولكي تكتب عن هذه الحادثة نفسها قصة ناجحة يقول عنها النقاد انها «مكتملة البناء الفني»، فكيف ستتصرف يا ترى؟ وهل تجيز لنفسك ان تغير الحوادث التي وقعت، او تضيف عليها حوادث جديدة كي تنسجم مع ما يسمونه « البنيان الفني للقصة»؟ واذا اجزت لنفسك ذلك، فهل تعتقد انك تكون في مستوى القضية التي تعذب البطل من اجلها؟

***

ان صديقي - بطل القصة - ولنسمه رياضاً، يعيش قضية تعكس نفسها على كافة جوانب حياته، انه يعيش قضية الامة العربية، ويبذل جهداً هائلاً لكي يرتفع بنفسه الى المستوى الايجابي المنتج لهذه القضية. . ان رياض قد حاز اعجاب الجميع وتقديرهم، رغم ان قسماً من هذا« الجميـع » عندما تعرف الى رياض قال عنه انه انسان يحب التظاهر، وانه في باطنه يريد ان ينطلق الى اقرب ملهى. . كي يلعب مع العصافير - حسب تعبيرهم - ولكن رياضاً ما لبث ان فرض نفسه بتشامخ ارتباطه مع القضية الكبيرة. .

لم يكن رياض - اذن - مزيفاً بهذا الارتباط، ربما كان ارتباطه هذا اوضح ما في نفسه من اصالة. . كان يقف وقته كله على تغذية نفسه بفهم اوسع، وانصع، لهذه القضية. . انني لا ابالغ، بل اعطيك انساناً اعرفه كما يعرف الانسان الصق الاشياء به. .

لقد سافر رياض الى الاردن، بعد انتكاسة نيسان الاخيرة، فان هنالك اشياء كثيرة يستطيع ان يؤديها باتقان، واستطاع ان يجد غرفة

متواضعة منعزلة في دار تسكنها امرأة في حوالى الثلاثين من عمرها، مع زوجها. . هناك سكن رياض، كان يمضي اوقاتاً طويلة في غرفته، يتم اعماله الخاصة، غير مهمل البتة، القيام بالواجبات الصغيرة التي تحتمها المجاملات مع اصحاب الدار. . لقد كان يستقبلهما بغرفته، ويسهر معهما، حتى اذا ما قاما الى غرفتهما دأب هو على عمله حتى الصباح. .

وكان في عمله ذاك، اوضح مثال عن الانسان الذي يتغذى بالنضال الصامت. كان قاسياً على نفسه، غير متهاون ابداً في مطالبتها بالواجبات. . كان رفاقه يحترمونه، لقد كان قوياً، وقد فرض هذا الشعور على جميع من تعاون معه، فرضه الى حد جعل بعضهم يتساءل، هل يمكن ان يكون لهذا الانسان ـ رياض ـ جوانب اخرى غير قوته، في ذاته؟

واتى الجواب في لحظة عابرة. . رأوه مرة يبكي، كان ذلك ليلة نزل فيها بسيارة هزيلة مع بعض اصحابه، حاملاً رزماً من المناشير، وفي الطريق، لاحظ السائق ان ثمة سيارة تتبعهم، فراوده خوف مشحون بالرغبة في التحدي، ولكنه اضطر الى ان يبدل اتجاه الطريق. . لم يلحظ هذه الحركة الا رياض. . بينما استمر واحد من زملائه يلقي شعراً، لشاعر من اقليم مصر بصوت خفيض نصف مبحوح:

. . لاجئة، تبكي ايام الحب. .

لما كانت يافا. . يافا.

واخيراً. . ما بعدك يا يافا؟

كم سنة ونصير حكاية؟

ويقول العلماء. .

العرب انقرضوا!

وفجأة نظر الجميع الى رياض، كانت اللحظة تحتويهم بعنف وتجهم، ان ثمة لحظات تعطي الانسان دفقات من المشاعر القاسية، البعيدة، العجيبة.. تلح على رأسه الحاحاً ممضاً.. لقد كانت تلك اللحظة من هذا النوع، ان رياضاً قد خضع حتماً لتلك الدفقات العجيبة.. ان اشياء كثيرة، تلح عليه، لا شك، بحدة وصلابة.
فبكى!

شي ء مؤلم ان تجد انساناً قوياً يبكي.. اليس كذلك؟

***

قلنا ان رياضاً عاش في الاردن منذ وصلها، وهو يعمل ليلاً نهاراً، لقد توطدت صداقته مع اصحاب الدار، فصاروا يحبونه حباً جماً، ليس هذا فحسب بل كانوا يقدمون له عشاءه في بعض الامسيات..

لقد كانت (ام...) صاحبة الدار تأتي الى غرفته كل ليلة تقريباً مع زوجها، فتجلس على طرف السرير، وتتحدث عن الاخبار بينما كان رياض يجلس على كرسيه، خلف طاولة صغيرة.

وفي مرة، رفعت (ام...) جريدة موضوعة على السرير امام عينيها، ولاحظ رياض ان الجريدة مقلوبة، وقبل ان يتكلم، رمت (ام...) الجريدة جانباً وهي تقول:

ـ الله يلعن ايام زمان.. على كل حال، انا تزوجت، وصار عندي اولاد.. ولم يبق في العمر قدر ما مضى..

وهز رياض رأسه وهو يقول:

ـ انك يا (ام...) من الناس الذين قيل عنهم انهم متعلمون رغم

انهم لا يعرفون القراءة . .

وضحكت (ام . . .) ونهضت وهي تتمنى له ليلة طيبة .

***

حتى اذا كان ذات مساء . . وقد عاد رياض الى داره مرهقاً، استقبلته الشرطة على الباب، وشدوا الحديد على رسغيه وقادوه ـ دونما كلمة ـ الى المخفر . . وذهب رياض الى هناك هادئاً، وهناك قالوا له انه يتآمر على العرش، ولكنه نفى ذلك بهدوء . . انه كان على يقين كبير ان احداً لن يجد ضده اثباتاً واحداً . . لقد كان حريصاً في اخفاء اوراقه، قديراً في التخلص منها في الوقت الملائم، ان الشتائم لم تجد، لا هي ولا السياط . . لقد بقي رياض صامداً في كل لحظة .

ولكن الامور تجري بقسوة اشد، لقد سجن رياض في زنزانة منفردة، وسلكوا في سحب اعترافاته طريقاً وحشياً مريعاً . . كان يعرض لتيار كهربائي في كل يوم . . كان يجلد، ويعذب، ويرمى في زنزانته وحيداً مع جراحه، ولكنه صمد ببطولة صامتة، فلقد ذوت ابتساماته تحت صفع السياط وصفع الشتائم، وبات لا يحس الا التمزق .

ثم حمل الى غرفة الضابط المسؤول واعيدت عليه مجموعة الاسئلة التقليدية، وانكر رياض كما اعتاد ان يفعل، قدم له الضابط ـ دون ان يغير تعابير وجهه المبتسم بجذل وحبور ـ مصنفاً صغيراً وطلب منه ان يفتحه .

لقد رأى رياض في المصنف مجموعة من الاوراق، ما لبث ان عرف فيها اوراقاً كان قد كتبها في غرفته تلك، منشورات، وبعضها الآخر رسائل الى هاربين، واوراق اخرى، لقد احس رياض لا شك، قسوة

المفاجأة ـ وعليك انت ان تبرز هذه المفاجأة عندما تكتب القصة ـ ولكنه تشبث بالنقطة الاخيرة التي بقيت لصموده، لقد قال ان هذا الخط ليس خطه، وانه، على هذا، لا يتعرف على الاوراق . .

نعم يا رياض، انه ليس خطك ولكن ايعدم الخائن وسيلة ليلوث نفسه اكثر بالوحل والحماء؟ ان عندهم مجموعة من الاثباتات الصغيرة لا بد وانهم سيبرزونها في الوقت الملائم . .

وبدأت الخطوط تنجلي شيئاً فشيئاً، ان صاحبة الدار هي صاحبة الوشاية، وهي التي كانت تنسخ اوراقه اثناء خروجه في الصباح، وهي التي قدمت تقريراً عنه، ان المرأة الشريرة اذن تعرف القراءة والكتابة، لقد حطمت المفاجأة كل قلعة للأمل في صدر رياض، ولكنه احتفظ لنفسه بمواساة اخيرة. ان المرأة الكاذبة لم تبدأ عملها منذ زمن بعيد وانها نسخت جهود ايام قليلة فقط.

ويتذكر رياض المرأة، ويشعر بالمرارة، لقد خدعته، ولكن ما مصلحتها من هذا كله؟ ـ ويأتي الجواب من زميل في السجن، انها زوجة منتسب لحزب معين ـ سأوافيك باسمه ان قررت ان تكتب القصة فعلاً ـ وهو حزب معروف بتعاونه مع الفئة الحاكمة هناك، وهي ـ اي المرأة ـ ام لابن يعمل فيه.

ويقول له الضابط ـ ما رأيك؟

ويقول رياض ـ انكم اذناب صغيرة في بالوعة القاذورات المنتنة، فليسقط العرش، ولتسقط الوزارة، ولتسقط انت.

ويصفع بالسوط . . ويلقى في السجن.

***

هذه هي القصة وهي بسيطة في حوادثها، عادية الى حد بعيد، انني لا اريد ان اكتبها كقصة خوف ان الجأ الى الحواشي، فأقع في الكذب، او في شي ء آخر لا اعرفه، ولا احبه، والحادثة كما كتبتها، هي الحادثة التي وقعت فعلاً، قد تبدو بعض احداثها غريبة او مدسوسة وهذا سيزعج بعضهم، او انما ستبدو عادية جداً، وهذا سيزعجهم اكثر.

خذ مثلاً عندما يتكشف ان صاحبة الدار هي امرأة تعمل لحساب الفئة الحاكمة، وانها منتسبة الى ذلك الحزب، سيقول بعضهم (انك دسست هذا المقطع لغايةفي نفسك) ولكن الحقيقة التي وقعت ترفض هذا التكذيب واذا لم اذكر هذه الحقيقة، فماذا اقول؟ اليس في ذكرها فائدة لطائفة من الناس؟ اذن؟

اتريد مثالاً آخر؟ يقولون لك ان كذب المرأة، صاحبة الدار، وان كلماته الاخيرة عندما صفعه الاثبات وحوادث تعذيبه، هي امور غير واقعية - وفيها شعار ما - ولكن لماذا ننفي الحقيقة ونفتش في اذهاننا عن حادثة يقول عنها النقاد انها ممكنة الوقوع، اليس في الذي وقع ممكن اوضح؟

اريد من كل الذي كتبت ان اسأل - أليس من حق هذا الانسان الطيب النبيل، ان يحتفظ لنفسه بحوادثه الخاصة تلك التي بذل فيها جانباً من انسانيته؟ اليس من حقه ان يقدم للناس كما هو، وان يتصرف في القصة كما تصرف حقيقة؟ اذن لماذا نحاول ان نحكي عنه قصة لم تحدث معه؟ ألنخدم فن القصة؟ قل لي لماذا؟.

ولكنني لا بد لي، ان اوافقك ان مشاعر القارى ء يجب ان تحترم ايضاً. فأنت - ككاتب يهمك جداً، وربما اولاً، رضا هذا القارى ء - تطالب بنهاية ما لهذا المقطع من حياة البطل، نهاية تخدم فن القصة

وترضي القارىء، الذي يجلس حيث لا ادري والذي يريد ان يدغدغ مشاعره قليلاً، اذن، فلنجد نهاية ما، ان رياض، ملقى في زنزانته الآن، على حشية قش وبراغيث، محروم من التدخين، محروم من القراءة، محروم من التفكير، الخيوط الحمراء التي حفرتها في جسده الاسمر سياط المجانين محشوة بالملح، ان اصابعه ترتجف من التعب، لا من الخوف.. تعال نفتش عن مخرج، تعال نخط له نهاية سعيدة على صفحة ورقة، كي يتمتع بها انسان حر طليق.. تعال نعمل كل هذا لنتم القصة.. كي نخدم فن الاقصوصة القصيرة.

لقد قرأت القصة على صاحبين من اصحابي، وطالبتهما بنهاية تسر القارىء، او على الاقل ترضيه.. فاقترح احدهما: ان يهرب رياض من السجن بكيفية ما، ولكنه طالب بأن تكون عنيفة، وان يذهب لتوه الى الدار فيقابل (ام...) وليقول لها ان وشايتها قد عذبت انساناً، وآلمته، وارهقته.. ومن ثم، يتركها لتأنيب ضميرها، الذي لا بد له - كما اكد صاحبي - ان يستيقظ، دفعة واحدة.

واقترح الآخر - وهو من قراء دوماس - «بل يجب ان تجري الحوادث الآن على نحو مغاير ان المرأة هذه، تشعر فجأة انها تحب رياض حباً عنيفاً، الم تقل انها في الثلاثين؟ حسن جداً، ان سبب هذا الحب هو ان رجولة رياض، ابرزت تفاهة الزوج، هذه المرأة، تذهب الى السجن لتقابل رياضاً، ولتقدم له الطعام والدخان، ولكنه يرفض، فتصر ويصر هو على رفضه، وتشعر فجأة بجريمتها، فتقرر قراراً عنيفاً...»

انني لا اوافق على هذه الثرثرة، وادرك كم انت مشمئز الآن، لكن ارجو ان تسمع رأيي في الموضوع، انني متأكد من نهاية هذه القصة، تأكدي من ان الشمس ستغرب اليوم على طرف الخليج، مثل كل يوم،

ان الوضع الهزيل القائم سيتهاوى لا شك، وسيخرج رياض من السجن مع زملائه الاحرار، وسينغمس مرة اخرى في مشاغل القضية التي آمن بها، وتعذب من اجلها.

اما عن (ام. . .)، فستضيع بين اكوام التجارب الصغيرة التي مرت به. .

ماذا ترى انت؟. .

الكويت ٩ ـ ٦ ـ ٥٨

قرار موجز

كان من هواة الفلسفة.. والحياة بالنسبة له هي مجرد نظرية..

لقد بدأ يتفلسف منذ كان طفلاً، ويذكر تماماً كيف اوجد لنفسه سؤالاً شغله طيلة اسبوع كامل، واعتبره مشكلة جديرة بالتفكير العميق: لماذا يلبس الانسان القبعة في رأسه والحذاء في قدمه؟ لماذا لا يضع على رأسه حذاء ويلبس قبعة في قدمه؟. لماذا؟. وفكر مرة اخرى بسؤال جديد: لماذا لا يسير الانسان على يديه ورجليه شأن سائر الحيوانات.. الا يكون مسيره ذاك مدعاة لراحة اكثر؟

الا ان مستوى فلسفته ارتفع مع مسير الزمن. وتوصل مؤخراً الى قرار موجز: «طالما ان الانسان دفع ليعيش دون ان يؤخذ رأيه بذلك، فلماذا لا يختار هو وحده نهايته». ومن هذا القرار الموجز توصل إلى قرار أكثر ايجازاً: «الموت هو خلاصة الحياة».

وهكذا، توصل الى استقرار، دعاه بنهاية المطاف.. واخذ ينتظر اللحظة التي يستطيع فيها ان يشرع باختيار طريقة مشرفة لميتة ما..

اذن، فان من يدعي ان عبد الجبار دفع دفعاً ليشترك في ثورة.... لا يعرف الحقيقة مطلقاً.. فهو قد اختار بنفسه ان يذهب لمركز التطوع

وان يقف امام طاولة الضابط الذي يقول بصوت ثابت:

- اريد بارودة لاستطيع ان اشترك بالثورة..

وسرعان ما اكتشف ان قضية البارودة ليست شيئاً سهلاً بالمرة.. وان عليه هو ان يصطاد بارودة ما بالكيفية التي يريد.. ومن ثم يستطيع ان يشترك بالثورة..

- ولكنني قد اموت قبل ان احصل على بارودة..

هكـذا قال حانقاً، ولكنه ما لبث ان سكت وهو يسمع جواباً غريباً، ولكنه صحيح تقريباً:

- وهل أتيت الى هنا كي تستمتع بصيفية لطيفة.. ثم لتعود الى دارك؟

هنا، فكر ان فلسفته تقتضي تعديلاً طفيفاً. اذ انه ربما مات قبل ان يحصل على بارودة، ولم تنقض فترة طويلة جداً كي يتوصل لقرار موجز جديد: «ليس المهم ان يموت الانسان، ان يحقق فكرته النبيلة.. بل المهم ان يجد لنفسه فكرة نبيلة قبل ان يموت..»

وهكذا استطاع عبد الجبار ان يستحصل على باروة جديدة تقريباً، ولم تكلفه جهداً بالشكل الذي تصور او بالشكل الذي اعد، اذ انه كان يتجول خارج «...» بعد معركة حدثت في الصباح، فوجد جندياً ميتاً، «والميت لا يحتاج لبارودة»، هكذا قال لنفسه وهو يقلب الجثة عن بارودة فرنسية ذات فوهة مدببة.

وبين رفاق المتراس عرف عبد الجبار «بـالفيلسوف»، ووجـد المناضلون في فلسفته منطقاً صالحاً لتبرير الامور التي تحدث.. كان معظم الثوار من الشباب، وكان يسره انه يكبرهم قليلاً وانه يستطيع ان

يجمعهم بعد كل معركة ليدرسهم قراره الموجز الجديد بشأن الموت.

وبعد كل قتيل، كانت الفلسفة تتطور وتتغير.. ففي ليلة مظلمة مات فلاح امي.. وقبل ان يسقط فوق المتراس شتم «...» ورجال «...».. وفكر عبد الجبار بكلمة تصلح لتأبين الشهيد، فاذا بالكلمة تصبح قراره الموجز الجديد: «ان الفكرة النبيلة لا تحتاج غالباً للفهم.. بل تحتاج للاحساس!» وبعد ليلة واحدة مات شاب كان قد خرج من المتراس وهجم بالسكين على جندي كان يزحف قرب الجدار، واطلقت النار عليه وهو في طريق عودته الى المتراس.. وقال عبد الجبار «ان الشجاعة هي مقياس الاخلاص..»

وكان عبد الجبار بالذات شجاعاً.. فلقد طلب منه الضابط، وكان قد توصل اخيراً الى ايجاد بذلة عسكرية ملائمة، ان يذهب للميناء كي يرى ماذا يجري هناك، وقال له ان منظر وجهه الهادئ الحزين لا يثير الريبة في قلوب الخائفين..

وسار عبد الجبار في الشوارع بلا سلاح، ووصل للميناء، وتجول ما شاء له التجول، ثم قفل عائداً الى متراسه..

ان الامور تجري عكس ما يفترض المرء.. فلقد عرفه واحد ممن اشتركوا مرة في الهجوم.. وقبض عليه.. وساقه الى حيث قال له ضابط خائف بعد ان صفعه:

ـ انك ثائر...

ـ نعم...

ـ ملعون..

ـ كلا!

ولم ينس عبد الجبار وهو تحت الضرب الذي لا يرحم ان يضع قراراً موجزاً جديداً: «ان ضرب السجين هو تعبير مغرور عن الخوف...»

وشعر، اثر ذلك القرار، بشيء من الارتياح..

***

ولكن الامور جرت ، من ثم، على نحو مغاير .

فلقد توصل الضابط اخيراً الى فكرة اعتبرها، بينه وبين اعوانه المخلصين، فكرة ذكية.. بينما عدها عبد الجبار تصرفاً مغروراً آخر ينتج في العادة عن الخوف...

قال له الضابط:

ستسير امامنا الى متراسكم الملعون... وستعلن لرفاقك المجانين انك احضرت معك عدداً جديداً من الثوار... ثم سيكمل جنودي بقية القصة...

ـ وانا؟

ـ ستعيش معززاً مكرماً.. او ستموت كالكلب ان حاولت خيانتنا..

وقال عبد الجبار في ذات نفسه «ان الخيانة في حد ذاتها ميتة حقيرة».

وامام صفين من الجنود سار عبد الجبار مرفوع الجبين، وفوهة مدفع رشاش تنخر في خاصرته.. وقبل ان يصل الى المتراس بقليل سمع صوت الضابط المبحوح يفح في الظلام:

ـ هيا..

لم يكن عبد الجبار خائفاً اذ ان رفاق المتراس قالوا ان صوته كان ثابتاً

قوياً عندما سمعوه يصيح:

- .. لقد احضرت لكم خمسين جندياً.

***

لم يكن عبد الجبار قد مات، بعد، عندما وصل رفاقه اليه ملقى بين جثث الجنود.. وبصعوبة جمة سمع احدهم صوته يملي قراره الموجز الاخير:

«ليس المهم ان يموت احدنا.. المهم ان تستمروا..»

ثم مات.

دمشق ٢١ / ٧ / ١٩٥٨

يدٌ في القبر

صحوت باكراً جداً ذلك اليوم، وكنت اسمع صوت ابي يسبح مستعداً للصلاة ثم مر من جانبي: ـ عيونك متعبة. . ماذا حدث، الم تنم جيداً الليلة؟

هززت رأسي، ودورت الصابونة في كفي، واخذت احدق الى وجهي في المرآة المقشورة من اطرافها دون ان ارد على اسئلة والدي. . . ومن غير ان الفت رأسي، عرفت انه وضع المنشفة حول عنقه واستبدل نعاله، واخذ يتثاءب شاداً ذراعيه ما وسعه ذلك. . مسحت وجهي بالصابون، وسمعت صوت اختي تسأل والدي:

ـ ماذا حدث؟

ـ لا شيء. . وجه اخيك كالعصفر، انه لم ينم الليلة حتماً. هل تعرفين متى عاد امس؟

ـ نعم اعرف، لم يعد متأخراً.

ـ انت تكذبين، دائماً تكذبين. . حينما يتعلق الامر بنبيل.

بدأت أغسل وجهي بالماء، ورغم أن الحديث كان ينذر بعاصفة

كريهة ، الا أنني كنت أحس نفسي خارج كل شيء ، وسمعت صوت أختي :

ـ قلت لك انه عاد مبكراً هذه الليلة . . انت لا تريد ان تصدق . هل ستشرب قهوتك؟

ـ لا قهوة، ولا سم . . هل يستطيع ان يقول لي لماذا وجهه اصفر اذا كان نام مبكراً؟

نشفت وجهي، واستدرت فواجهته، كنت اعرف انه يريد سبباً ليثور. هكذا يبدو في كل صباح، انه لا يفعل شيئاً سوى ان يفتش ـ طوال ما قبل الفطور ـ عن سبب يلقي عليه ثقل غضبه، وكنت انا اليوم محاولته الاولى . . حدق بي ثم رجفت شفتاه وهو يكرر:

ـ اذا نمت باكراً يا بك . . لماذا يصفر وجهك هكذا؟

درت حوله، وحينما اصبحت كتفي الى جانب كتفه قلت بهدوء:

ـ اصفرار الوجه له عدة اسباب، ربما بسبب دود في المعدة، او بسبب عشاء ثقيل، او بسبب الاكثار من الدخان، وهنالك اسباب اكثر خطورة: انيميا مثلاً، او سل، او بداية شلل نصفي.

لم يحدث ما توقعته، فوالدي لم يثر اطلاقاً، بل رمقني بنظرة جانبية معجبة . . ربما تذكر انه صرف علي طوال اكثر من عشر سنوات حتى استطعت ان ادخل كلية الطب، وهاءنذا اجيبه بكل وقار اجوبة علمية. فأدخل هذا كله السرور الى قلبه . . ولكنه لم يشأ ان يتراجع بسهولة:

ـ لقد صحوت باكراً اليوم . . اذنت الفجر اذن؟

كنت قد وصلت غرفتي فألقيت بالمنشفة فوق السرير، ودون ان استدير لمواجهة والدي وشقيقتي الواقفين في الباب، جاوبت بهدوء:

ـ صحوت باكراً من اجل ان اسرق قبراً . .

ـ تسرق ماذا؟

ـ اسرق قبراً!

استدرت، فواجهته راجفاً:

ـ اسرق قبراً . . نعم، هل هذا شي ء عجيب؟ يلزمنا في الكلية هيكل عظمي . . ولقد كلفوني باحضاره انا وسهيل . .

كان والدي ما يزال غير قادر على ان يدرك الصورة تماماً، وبقي واقفاً هناك يردد دون ان يعي:

ـ تسرق قبراً؟

ـ نعم . . اسرق قبراً . . هيكلاً عظمياً لأي رجل مات منذ عشرين سنة اريد ان ادرسه .

اغلقت شقيقتي الباب بيني وبينه، وتركتني وحيداً، ولما لم اسمع صوتاً خارج الباب. استبدلت ملابسي، وكنت قد جهزت الكيس والرفش، وكان على سهيل ان يحضر معولاً صغيراً. انحنيت لاجمع اشيائي، ولكن اختي فتحت الباب قبل ان انهض ونهرتني بحب:

لماذا أثرته يا نبيل ؟ أنت على غير مزاج هذا الصباح ، لماذا كذبت عليه ؟

ـ انا لم اكذب . . اريد ان اسرق قبراً .

كان والدي قد لحق بها، واطل من فوق كتفها، ولاحظت انه كان يرتجف، واخذ يصيح:

ـ لعن الله الساعة التي ادخلتك فيها كلية الطب، تريد ان تسرق جثة؟ يا لص، يا قليل الدين، يا فاسق . . الم تقرأ ما قال الله في . .

ـ قرأت، قرأت كل ما قاله الله ، ولكن الله ليس ضد كلية الطب. . مطلوب مني هيكل عظمي كما كان يطلب منك الشيخ «جزء عم»!

حدق بي مستنكراً ان اتدخل في ماضيه بهذا الهزء، ثم ما لبث ان وجد سؤالاً غاضباً:

ـ هل سيسرق كل طلاب كلية الطب قبور الناس هذا الصباح؟ لن تتركوا جثة في المقابر! قل لي هل سيسرق كل الطلاب قبور الناس؟

القيت الرفش في الكيس، وفتلته حول معصمي ثم اقتربت منه:

ـ كلا! ثمن الهيكل العظمي ٧٥ ليرة، هل معك ٧٥ ليرة؟ لذلك اريد انا وسهيل ان نسرق. . لانك لا تستطيع ان تعطيني ٧٥ ليرة، ولان عمه لا يستطيع ان يعطيه ٧٥ ليرة.

اطبقت شفتي، ونظرت اليه مغضباً، كان يحدق الي بعجز كامل، فرفعت الكيس في وجهه:

ـ والآن. . دعني اذهب قبل ان تشرق الشمس وتفضحنا.

انزاح عن طريقي مشدوها دون ان يقتلع عينيه عن وجهي. . وكان فمه مفتوحاً دون ان يقدر على نطق كلمة فيما اجتزته انا في طريقي الى الباب. .

كان سهيل ينتظرني قرب المنعطف. . وكان يبدو مع ضوء آخر الليل شبحاً اسود يرابط في الركن كي يخوف طفلاً شقياً.

ـ هذا انت؟

همس عبر الظلمة الكثيبة ، ثم شبك ذراعه في ذراعي ، ورأيت دون أن أنظر الى وجهه أنه كان خائفاً مثلي . . مشينا قليلاً ، ثم وقف :

ـ لم يعطك ٧٥ ليرة. . ها؟

سألني كمن يريد ان يقول بأنه هو الآخر لم يستطع ان يحصل على الـ ٧٥ ليرة. . رفعت رأسي نافياً. . ثم شرحت الامر.

ـ لقد تركت كل شيء حتى الصباح. . ويبدو ان المفاجأة منعته حتى من ان يفكر بالامر. . وهكذا خرجت، كنت اتوقع ان يصيح بي قبل ان اخرج فيعطيني الـ ٧٥ ليرة، ولكنه بقي واقفاً كالمشدوه. . ماذا حدث معك انت؟

هزّ سهيل رأسه ثم قال:

ـ حسب عمي اني اريد ان اضحك عليه بـ ٧٥ ليرة. . ولكن حينما اكدت له الأمر قال لي أنه مستعد لأن يدفع تكاليف الأحياء وليس ثمن الأموات . . ثم قال لي أني شاب ، وشجاع فما الذي يمنعني من سرقة قبر وتوفير ٧٥ ليرة ؟

مشينا برهة، ثم انعطفنا في الشارع الذي يؤدي الى خارج المدينة. . وسمعت صوته:

ـ اذن هكذا؟

ـ اذن ماذا؟

ـ سوف نسرق قبراً! لقد فشلت محاولات التسول! ابوك يبيع هيكله العظمي نفسه بأقل من ٧٥ ليرة. . اما عمي فيبيعه بفطور واحد. . لا فائدة سوف نسرق قبراً.

وقفت، وامسكت به من كتفه:

ـ لا تقل انك خائف؟ اذا كنت خائفاً، ارجع وسأذهب وحدي. .

ـ انا خائف؟ ها! انا لست خائفاً. . ولكن لا يعجبني ان امشي في آخر الليل لاسرق جثة. . اترى الى منظرك كيف تمشي لتسرق

الاموات؟

كان خائفاً، هذا امر لا شك فيه.. خائفاً اكثر مني.. سرنا مطرقين، كانت ثمة مقبرة خارج المدينة، مقبرة قديمة ذات قبور واطئة من طين بني.. لم تكن مسورة، ولم يكن فيها عادة، حارس ما.. كانت مقبرة من ذلك الطراز الذي يوجد في مكان بعيد، بلا مبرر، كبقايا معركة قديمة بين غرباء جاؤوا من بعيد، ثم ماتوا، دون ان يعنى احد بدفنهم في مكان ما.

كان لخطواتنا وقع جنائزي... وحينما اقتربنا من المقبرة شعرت بصدري يهتز تحت وطأة ضربات عنيفة.. وخيل الي ان شيئاً ما، يجلس كشبح فوق كتفي.. لم احاول ان انظر الى سهيل خوف ان يعتقد اني خائف، وخيل الي اني اسمع صفير لهاثه وهو يخطو، الى جانبي، بثقل وصمت.

- ها نحن ذا..

قلتها بعد ان جمعت لها كل طاقتي، ونقلت الكيس من كتف الى اخرى ثم وقفت:

- علينا ان نختار قبراً جيداً.

لم يجبني.. ومن بعيد كان ضوء كريه ينبعث بهدوء فوق قمة الجبل.. وكان الشيء الثقيل ما زال يجلس فوق كتفي، وكان صدري يهتز بعنف.. التفت الى سهيل، كان ينظر امامه بهدوء:

- اسمع يا سهيل، اذا كنت خائفاً.. هيا بنا لنرجع.

نظر الي برهة، ثم سبقني صاعداً الارتفاع البسيط باتجاه المقبرة واخذ، وهو يلهث صاعداً، يحدثني:

ـ انا خائف؟ ان شئت ارجع انت. . اما انا فسوف اكمل. ما رأيك بهذا القبر؟ انه يبدو متماسكاً، وقديماً، وكبيراً، الست ترى انه مناسب؟

لم اكن اتوقع من سهيل ان يكون شجاعاً بهذا الشكل، وفاجأني حديثه حتى اني رغبت في ان ابرهن له، انا الآخر، شجاعة مماثلة:

ـ هذا القبر؟ اوه. . يخيل الي انه قبر ثور، ولكن لا بأس طالما انه وافق مزاجك.

شعرت بالخوف مباشرة بعد ان اتممت جملتي، واكتشفت فجأة ان سهيلاً كان خائفاً هو الآخر، وانه يحدق إليَّ غير مصدق مطلقاً ان امس الميت بهذا الشكل، وكنت انا احاول جاهداً القاء الكيس على الارض واخراج الرفش، ولكني كنت احس بأن الكيس اثقل من ان يتحرك، وبأن ذراعي مخدرة ومفرغة. . وسمعت صوت سهيل يهمس لنفسه:

ـ ٧٥ ليرة! ٧٥ ليرة فقط. . يا سلام!

ورأيته يلقي بمعوله الصغير على الارض، ثم يخلع سترته بعصبية ويلتفت الي:

ـ لا تقف كالاخرق. . دعنا نبدأ قبل ان تضيء اكثر. . لا تقل لي انك خائف؟ انت صاحب الفكرة!

القيت بالكيس الى الارض، وكان سهيل قد بدأ يعمل بعنف وسرعة، فهدم كوم الطين، واتكأ على المعول بينما ازحت انا التراب، وشعر كلانا بالدم يتدفق من جديد. .

ـ بقيت البلاطة. . ما رأيك؟ نزحزحها؟

نظرت اليه وهو يلهث، وكان يبدو في ضوء الشروق شيئاً

اسطوريا. . «اوشكنا ان نصل» قلت ذلك لنفسي فيما بذلت جهداً لا يبدو طبيعياً، كان واضحاً لي ان سهيلاً يطمئن الى شجاعتي. . بينما كان علي ان اكسب سمعتي في الكلية حينما يروي سهيل الحادثة غداً، لمست البلاطة بأصابعي، ثم رفعت رأسي لسهيل:

ـ رأيي اننا لن نستطيع زحزحتها . . دعنا نثقبها .

ـ ولكننا قد نكسر شيئاً من الهيكل.

ـ كلا . . انهم يبعدون الصخرة عن الجثة عادة حينما يدفنونها. . الم ترَ في عمرك كله حادثة دفن؟

رفع معوله الى فوق، واجاب بايجاز:

ـ كلا.

اخذت المعول منه حينما تعب، ثم عاد فأخذه مني. . كنا نعمل بسرعة خوف ان تبدأ قوافل الفلاحين بالقدوم الى المدينة، وكان الضوء قد اشتد، رمادياً بارداً كريهاً، وصار من السهل على الواحد منا ان يكتشف ما في وجه رفيقه، لذلك تشاغل كلانا بالعمل، كيفما اتفق.

ندت عن سهيل، فجأة، صيحة صغيرة، وكان رأس المعول قد فتح ثغرة صغيرة سوداء في البلاطة وانحشر داخلها. . رفعنا المعول سوية، وحينما تلاقت كفانا رفع رأسه ونظر الي، فابتسمت، واخذت اوسع الثقب فيما كنت اشعر انه يحدق الي، خلفي وهو خائف.

ـ لن تستطيع ان تخرجه من هذا الثقب الصغير. . يجب ان توسع الثقب اكثر . .

قالها سهيل من خلفي، وكان صوته راجفاً، كنت الهث وانا اوسع الثقب. لذلك فضلت ان اتكلم ليضيع خوفي في لهاث التعب:

ـ سوف لن نخرج شيئاً الآن . . . . نريد ان نطمئن فقط لوجوده، ثم نوسع الثقب.

ـ ومن الذي سيمد يده؟

سأل بهدوء، ولكن بخوف. . بينما اخذت انظف جوانب الثقب، وكانت تنبعث منه رائحة نتن قاسية، وتجاهلت سؤاله .

ـ من الذي سيمد يده؟

سأل مرة اخرى، فنهضت هذه المرة وواجهته.

ـ اي واحد منا سوف يمد يده. . انت لست خائفاً؟ اليس كذلك. . اتدري ماذا يوجد في الداخل؟ جمجمة مثل تلك التي يحملها الطلاب كل صباح في الكلية. . هذا كل ما في الامر.

ـ اذن مد يدك انت. .

قالها بيأس. . كان خائفاً اشد ما يكون الخوف، وكان قد وصل الى نقطة لم يستطع ان يستمر فيها باللعبة. . اما انا فلم اكن اتصور أي تراجع بعد كل ما فعلنا، فقلت بهدوء:

ـ نعم. . سوف امد يدي انا.

ركعت على ركبتي، وانزلت ذراعي في الثقب، وطوال دقائق عديدة لوحت ذراعي داخل القبر دون ان امس شيئاً، فنهضت واقفاً.

ـ لم أستطع أن أصل إلى القاع. . انت نحيف أكثر مني . ما رأيك ان تمد يدك ؟ لقد رأيت بعينيك ، لم يكن ثمة أي شيء راعب .

نظر الي بتشكك هادىء برهة، ثم خطا، وثنى ركبتيه تحته ومد

يده. . كان وجهه اصفر، ثم عاد اليه لونه وبدا لي انه لم يعثر على شي ء:

ـ لم اصل الى القاع.

قالها فرحاً بعض الشي ء. . بينما انحنيت انا في مواجهته قائلاً:

ـ اثن كتفك الى تحت اكثر. . يجب ان لا نعود بلا شي ء، حاول. .

دس سهيل ذراعه اكثر، ثم اخذ يحشر كتفه وهو مستلق كلية على جنبه. . ووجنته ملتصقة بالتراب.

ـ هل لمست شيئاً؟

اجاب بصوت متقطع:

ـ ليس بعد.

نهضت واقفاً، ووضعت يدي على جنبي، كانت الحماسة تبدو على سهيل. . وكان يبذل جهداً مستمراً وعنيفاً.

لست اذكر ما الذي شغلني في اللحظة التالية عن سهيل، الا اني صحوت فجأة على صياح راعب متصل، وفي غمرة الخوف المفاجى ء الذي احسسته في مفاصلي يئز ازيزاً متصلاً، شاهدت سهيلاً يدور حول نفسه ووجهه يتمسح ببلاطة القبر، وكان يبذل مجهوداً هستيرياً لاخراج ذراعه من الثقب، لقد لمحت عينيه فيما كنت اشده من ذراعه الاخرى محاولاً اخراجه، ولن انسى منظر تينك العينين المفتوحتين حتى اقصاهما ابداً وكانت شفتاه الزرقاوان ترجفان وهو يعلك بين اسنانه صياح حيوان مذبوح، وكان كله ينتفض فوق البلاطة وكأن يداً رهيبة لشيطان غير مرئي تهزه بعنف، ! وحينما استطعت ان اخلص ذراعه من الثقب لم

يتوقف عن الصراخ، وكانت اطراف الثقب المشرشرة قد جرحت كتفه وساعده جروحاً غائرة اخذت تنزف.

وقف سهيل، دون ان يتوقف عن الصراخ العالي البشع، وكنت انا بدوري قد اخذت ارجف دون ان ادري ماذا يتعين علي ان افعل، اخذت اهزه من كتفيه، الا انه كان يدور حول نفسه، وينتفض بين يدي كمن به مس.. ثم صمت فجأة، وكأنه ليس هو من كان يصيح قبل هنيهة، واستدار، فواجهني مطبقاً شفتيه الزرقاوين باصرار، كان وجهه بلا لون، وكانت عيونه مدورة وحمراء، وعلى جبينه كانت تختلط حبيبات العرق برمل البلاط الناعم، حدق الي وكأنه ينظر ـ خلالي ـ الى شيء كريه، ثم فتح شفتيه، وصاح في وجهي ضاغطاً كلماته بين اسنانه:

ـ اصابعي.. اصابعي.. دخلت في عينه!

اخذت ارتجف، ولكن خوفي من سهيل كان اشد من اي شيء آخر.. فأخذت اهزه من كتفيه بعنف، واصيح به:

ـ ايها المجنون! هذا قبر قديم.. عمره اكثر من خمسين سنة.

نظر الي ببلاهة، كان واضحاً انه لم يسمعني، واخذ يردد

ـ عيناه.. اصابعي دخلت في عينيه..

ان الذي تبقى من قصة سهيل ليس طريفاً! ولماذا لا نقول الآن ان الفكرة كانت فكرتي؟ وانه لم يكن مطلوباً منا في السنة الاولى من كلية الطب ان نشتري هيكلاً عظمياً.. ولكننا اردنا، انا وسهيل، ان نحصل على هيكل عظمي لنشعر انفسنا بأننا صرنا في كلية طب.

لقد عدنا سهيل وانا، الى الجامعة عصر ذلك اليوم، وكنت انا مريضاً، اما سهيل فقد اخذ يروي القصة لبقية الطلبة وهو يرجف

كشي ء ممزوق. . وفي الايام التي تلت، استمر سهيل يروي القصة لكل من يصادفه؛ وكان يشرح كيف دخلت اصابعه في عيني الميت بتفصيل مذهل، وهكذا وجدت الجامعة نفسها مضطرة الى طرده من كلية الطب بعد ان يئست من اصلاح سلوكه، وبدا للجميع ان سهيلاً قد جن، اما انا فلقد انتقلت الى كلية الحقوق بعد ان عجزت عن مشاهدة اي هيكل عظمي. .

واليوم، وبعد ان مر على الحادث اكثر من سبع سنين، برهن القدر انه كان عادلاً وسخيفاً معاً. . انا اذكر كيف قال لي عمه غداة الحادث انه لم يكن يأمل ان يستطيع سهيل الوصول الى المقبرة، وانه توقع ان يعود اليه مرعوباً فيعطيه ثمن الهيكل. . اما ابي فلقد سبح ربه طويلاً حينما سمع القصة، وقال لاختي ان اللصين لقيا جزاءهما من القبر والميت، وهكذا فلقد وصل به الامر الى الاعتقاد بأن القبر الذي نبشناه كان قبر ولي، فأخذ يقصده كل فجر يتبارك برمله وطينه ويصلي جواره. . .

نعم، كان قدراً عادلاً وسخيفاً معاً. . ذلك اني عرفت امس فقط، وبعد مرور اكثر من سبع سنوات، ، عرفت صدفة قصة المقبرة التي قصدناها.

المقبرة تلك لم تكن مقبرة. . كانت ارضاً «مهملة» لفلاح تركي، حرص ايام المجاعات ان يبني فيها قبوراً من طين، لم تكن في الواقع الا اغطية «لمستودعات» صغيرة خزن فيها القمح والطحين كي لا تسرق او تصادر، وترك التركي وصية لم تفتح إلّا يوم امس حين مات، وكان السر في تلك الوصية.

وامس فقط، استلم الـورثة الارض ليـزيحوا عنهـا القبـور، وليزرعوها . .

ونشرت صحف المدينة الخبر في صفحاتها الاولى .

بيروت ٢٧ / ٨ / ١٩٦٢

كانَ يومذاك طِفلاً

مسح الزبد المتوهج باحمرار الشروق رمال الشاطىء الفضي، وكانت اشجار النخيل المعوجة تنفض عن سعفها الكسولة المسترخية نوم ليلة البارحة، وترفع اذرعتها الشوكية الى الافق حيث كانت اسوار عكا تشمخ فوق الزرقة الداكنة، والى يمين الطريق القادم من حيفا، مصعداً الى الشمال كان قرص الشمس الكبير يطل من وراء التلال فيصبغ رؤوس الاشجار، والماء، والطريق، بلون ارجواني متضرج بالحياء المبكر. تناول احمد شبابة القصب من السلة واتكأ في ركن السيارة واخذ ينفخ عتابا مجروحة، لعاشق ابدي، استطاع ان يعيش في كل القرى التي تتناثر كنجوم ارضية ساكنة، في طول الجليل وعرضه.

وفيما كان الباص ينسرب في انفاس الشروق، كان اللحن المجروح يكمل الطبيعة، وهذا تماماً هو السبب الذي من اجله لم يفاجىء النغم احداً من ركاب السيارة، فقد كانوا يتوقعون ان ينبثق اللحن انبثاقاً من كل شيء حولهم، والمفاجىء كان افتقاده، في واقع الامر.

كانت الحقول تنسرح الى اليمين، تموج بالاخضرار المضرج، وكانت الامواج تواصل محاولاتها الابدية في تسلق الرمل الفضي، وفي ذلك

الكون الصغير المطوق بمعدن السيارة، باللحن الكامد، كانت علاقة من نوع ما، غير منطوقة وغير مرئية، تربط بين عشرين انساناً لم يتبادلوا، خلال حياتهم كلها، الا تحية ذلك الصباح وهم ينتظرون السيارة في شارع الملك فيصل بحيفا.

وكان العالم الصغير ذاك مزيجاً من عمال امتصهم الميناء، مثل شافطة وحشية، من كل ثقوب «الجليل»، وفلاحين من قضاء حيفا صاهروا، منذ زمن لا يستطيعون الوصول اليه بذاكرتهم، رجالاً ونساء من قضاء صفد، وطفل واحد من «أم الفرج» ارسلته امه الى حيفا ليرى فيها اذا كان ابوه ما يزال حياً، وهو يعود الآن بالجواب، ومحام وكل بقضية ارض في «الكابري» ويتعين عليه فحصها قبل جلسة المحكمة، وامرأة تسعى الى خطب فتاة لوحيدها، وسلال فيها طعام وخبز مرقوق وحمام طبخ في الطوابين، ولعب اطفال، وصفارات، ومكاتيب حملت على الموقف من غرباء الى غرباء، وشبابة من قصب لفتى اغلقت مدرسته قبل يوم واحد فقط، وسائق يعرف الطريق مثلما يعرف زوجته.

من حيفا، الى الطريق المتعرج الذي يطوق الخليج كالعقد، صعوداً حيث ينبثق النخيل مطعوجاً متراجعاً حائراً في عراكه الصامت الممض مع الرياح القادمة من البحر، فوق نهر «النعمين» الذي يصب حزيناً متعباً ولكن نقياً في الموج الصاخب فيرده، بهدوء عنيد، الى الوراء، ومن هناك تتسلق السيارة الطريق الى عكا، الى «المنشية»، الى «السميرية»، الى «المزرعة»، الى «نهاريا»، لتنعطف شرقاً وتغوص عبر عشرات من القرى، ملقية طوال الطريق راكباً هنا وسلة هناك ورسالة الى رجل ينتظر، وزوجاً لامرأة لم تستطع ان تنتظر.

قال رجل لآخر يجلس قربه:

ـ هذا الفتى يلعب الشبابة جيداً.

الا ان الرجل الآخر لم يجب، اطلق بصره عبر النافذة، وترك للحن ان يخضه، كجرة الزبدة.

والقى الطفل رأسه في حضن العجوز التي تجلس قربه ونام، واحضرت امرأة اخرى، لا تعرفه، رقاقة محشوة ببيض مسلوق مبهر وجعلت تنتظر أن يصحو لتطعمه، ودندن السائق أغنية تتماشى مع اللحن، عن فتى يستطيع ان يشيل جبلاً ويضعه فوق بيت الفتاة التي احب، اذا ترددت في الهروب معه الى كهف ليس فيه الا الحصيرة والرغيف وحبات زيتون، وصدره.

عكا، امام الشبابيك،، المقبرة اولاً الى يمين الطريق مع المنعطف، ثم محطة الى اليسار، وتمضي فيها بعد البيوت المبنية بالحجر القدسي المنفوخ، مثل الرغيف، ووراءها حدود «الحديقة العامة» تصفر فيها اشجار الكينا العالية، ومن بعيد تبدو قمم السور وابراجه من حجر بني اطلت الاعشاب الخضراء من شقوقه، والى اليمين كانت بيوت جديدة، صغيرة ومزروعة مع ورد عنابي غزير تنبثق صفاً وراء صف، وفي الأفق كان «تل الفخار» وقوراً بقمته المسطحة وسفحه المسالم المزروع بقبور جنود لم يورثهم عنادهم الا الموت دون ان يروا ابعد من السور، ثم، الى اليسار، مبنى الصحية الحجري، وسلسلة المرائب التي لا تنام وهي ترقب صفوفاً من الدواليب ترتفع كالبراميل امام بواباتها الملطخة بالشحم، وسيارات محطومة تتسلقها النباتات البرية بانتظار ان تصلح او ان توزن أو ان يأكلها الصدأ.

خلع رجل معطفه وغطى الطفل، وتناول رجل آخر، اسمه صلاح برتقالة من سلته، قشرها وقدمها الى جاره اولاً كما تقتضي الاصول،

وتحدث رجلان آخران عن موسم الزيت، ورويت امرأة بدينة، كانت قد ذهبت الى الحج قبل عام واحد، كيف نسف اليهود في يافا داراً للايتام وكيف تناثرت جثث الاطفال على فوهة شارع «اسكندر عوض» ممزوجة بحبات البرتقال المفزورة، فقد وضع اللغم في سيارة شحن مملوءة بالبرتقال اوقفت امام درج الميتم، وقال شيخ معمم ان من يقتل يتيماً سيقطع الله يديه، وان قدرة الله على الانتقام، في هذه الحالة، لا يتطرق اليها الشك.

قبل «نهاريا» بخمس دقائق، صحا الطفل، وتوهجت الشمس، وحضر رجل نفسه ليغادر السيارة، وشوهدت عربة محملة بالخضار يجرها حمار ابيض صغير على طرف الطريق، وصمتت الشبابة، وقال السائق بصوت مرتفع: «خير انشاء الله!» واطل الرجال، من فوق ظهور المقاعد، الى الطريق، وقال احمد: «دورية»، ولكن صلاح صحح: «لا، انهم يهود». وقالت الحاجة: «يا لطيف الطف»، ثم وقفت السيارة واطفأ السائق محركها.

ـ انزلوا.

قالها جندي بلباس داكن الخضرة يحمل مدفعاً رشاشاً قصيراً وهو يطل برأسه الى الداخل، نزل السائق اولاً، ممسكاً بيد الطفل، ثم انزلت النساء، وجاء دور الرجال فيما بعد.

وجرى تفتيش دقيق للبشر اولاً، ثم بقرت السلال، وفتحت الصرر البيضاء المعقودة بعناية، واعلن الجنديان اللذان قاما بهذه المهمة لقائدهما، وكان رجلاً سميناً قصيراً يتمنطق بمسدس صغير ويحمل عصا سوداء، ان السلال والصرر خالية من السلاح...

وقال القائد القصير لجندي وقف الى جانبه: هات الطفل. ثم اشار

الى رجاله بأطراف اصابعه اشارة دائرية فانبرى هؤلاء الى وضع الرجال والنساء في صف واحد، على جانب الطريق، وكان مجرى من الماء يمتد وراءهم مباشرة، ثم احصى العدد واعلن بالعبرية: خمسة عشر.

ضرب القائد عصاه السوداء على فخذه ضربة رقيقة، وكان الطفل واقفاً الى جانبه غير واع لايما شيء، ثم سار بخطوات قصيرة حازمة امام الصف المترقب، وبدأ:

- «انها الحرب، ايها العرب. . وانتم كما تقولون دائماً شجعان، اما نحن فمجرد فئران، تعالي انت».

ومن وراء سيارة صغيرة برزت صبية تلبس سروالاً قصيراً، وتعلق على كتفها رشاشاً، ووقفت مباعدة ما بين ساقيها العاريتين على الطرف الآخر من الشارع:

- «هذه حصتكِ اليوم.»

سقطوا في الخندق، وغرقت وجوههم واكفهم في الوحل، وقد تكوموا هناك كتلة متراصة واحدة مختلطة اختلاطاً دموياً، فيما كان خيط من الدم الاحمر يتسرب من تحت اجسادهم، ويتجمع، وينساب مع جدول المياه الى الجنوب.

التفت الرجل السمين الى الطفل وانحنى قليلاً ممسكاً اذنه بقسوة بين اصبعيه:

- «هل رأيت؟ تذكر هذا جيداً وانت تحكي القصة. .»

ثم انتصب، وبعصاه السوداء صفع الطفل على مؤخرته ودفعه الى الامام:

- «هيا - هيا اركض بأقصى ما تستطيع، سوف اعد الى العشرة ثم

سأطلق عليك النار، اذا لم تكن قد ابتعدت بصورة كافية».

ولوهلة لم يصدق الطفل شيئاً، ولبث ثابتاً في الارض كأي شجرة من الاشجار المزروعة حوله ينقل بصره، وقد سقط فكه فكشف اسنانه الناقصة، بين الخندق وبين الفتاة ذات الساقين العاريتين. وفي اللحظة التالية جاءته الضربة الاخرى بالعصا السوداء فأحسها تسلخ لحمه، ولم يكن ثمّة ما يفعله غير ان يطلق ساقيه للريح وقد اغتسل الطريق، امام عينيه، بغشاوة من الدوار والضباب والبكاء.

ورغم ذلك، فقد وصلت الى اذنيه اصوات ضحكاتهم الصاخبة فوقف، لم يدر كيف حدث ذلك ولماذا، ولكنه وقف، ووضع كفيه في جيبي سرواله وسار بخطوات ثابتة هادئة وسط الطريق دون ان يلتفت الى الوراء.

وبينه وبين نفسه فقط اخذ يعد عداً بطيئاً: واحد، اثنين ثلاثة...

بيروت ايار ٦٩

سلسلة أعمال غسان كنفاني

١ ـ موت سرير رقم ١٢	قصص قصيرة
٢ ـ أرض البرتقال الحزين	قصص قصيرة
٣ ـ رجال في الشمس	رواية
٤ ـ عالم ليس لنا	قصص قصيرة
٥ ـ الشيء الآخر (من قتل ليلى الحايك)	رواية
٦ ـ ما تبقى لكم	رواية
٧ ـ أم سعد	رواية
٨ ـ العاشق/ برقوق نيسان/ الأعمى والأطرش	روايات
٩ ـ عن الرجال والبنادق	قصص قصيرة
١٠ ـ الباب	مسرحية
١١ ـ الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال ١٩٤٨ ـ ١٩٦٨	دراسة
١٢ ـ القبعة والنبي	مسرحية
١٣ ـ القميص المسروق وقصص أخرى	قصص
١٤ ـ أدب المقاومة في فلسطين المحتلة	دراسة
١٥ ـ جسر إلى الأبد	مسرحية
١٦ ـ في الأدب الصهيوني	دراسة
١٧ ـ عائد إلى حيفا	رواية

● يمكن الحصول على هذه السلسلة وبقية منشورات مؤسسة الأبحاث العربية من الموزعين والمكتبات أو مباشرة من **مؤسسة الأبحاث العربية** ص. ب. ٥٠٥٧ ـ ١٣ (شوران)، هاتف: ٨١٠٠٥٥ ـ ٨١٠٠٥٦، تلكس ٢٠٦٣٩. دلتا ـ بيروت ـ لبنان.

— **IAR (RAWAFID) Ltd.**
P.O.Box 7047, Nicosia, Cyprus,
Tel. (357) 2 - 452670, Tlx. 5223 Rawafid - Cy.